الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٥٧ — ٦ يوليه سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 157.

Lundi - 6 - 7 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٥٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٥ — ٦ يوليه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

فى النقـــد أيضاً

عزيزى الدكتور هيكل بك :

كان للفصل الذى كتبتُه منذ أسابيع فى (النقد المزيف) أثران مختلفان : أثر رَضيتَه أنت فسميته نجاحا صحفيا ، لأنه أثار حواراً طريفاً بين صديقين من كبار الكتاب فى مصر فدعواك بما شققا منه إلى المشاركة فيه ؛ وأثر سخطتُه أنا فسميته مصاباً أدبيا ، لأنه ألب علىّ كثيراً من طوائش الأفهام فى مصر وفى غير مصر ؛ ففريق ظن أننى عنيته بهذا المقال ، كأنه لمح فى نفسه آثار تلك العيوب فاتهم ثم حكم ثم غضب لأننى قلت الواقع وقال الحق ، ثم حاول بهذا الغضب أن يستفزنى الى المسافهة ؛ وفريق زعم أننى غمطت مدارك الشباب فاستعجزتهم عن النقد ، واستحمقتهم فى تكلف ما لا يحسنون بحكم السن والدرس والطبيعة ؛ ثم جعلوا رأيك فى ذلك نقيض رأيى ، ومضوا يتعززون به ويدافعون وليس منا هجوم ، ويرافعون وليس بيننا قضية

الواقع أننى هاجمت نوعا من النقد فشا على بعض الأقلام الرّخوة ، يصور الحق بلون الباطل ليُضحك ، ويبرز الجميل فى مظهر القبيح ليسيء ؛ وهو ينبعث إمّا من مكامن الحقد فيرمى إلى

التجريح ، وإما من مواطن الغرور فيرمى إلى الهدم . وذلك الضرب من الهوى العابث يترفع عنه الشاب والشيخ ، بدليل أن أحدهما إذا ملكته الحفيظة لجيله رمى به الآخر . على أنى حين قلت إن النقد المنطقى ملكة فنية أصيلة ، وتربية أدبية طويلة ، وثقافة علمية شاملة ؛ وأن الناقد بهذا الاعتبار يشارك المشترع فى صدق التمييز ، والفيلسوف فى دقة الملاحظة ، والقاضى فى قوة الحكم ، كان فى نفسى — وأعترف بذلك — أن الشيوخ فى الغالب هم أصحاب هذا الفن وأرباب هذه الملكة . وأقول (فى الغالب) لأنى قرأت منذ سنين للأستاذين : (غريب) و(المصرى) وهما من كتاب الشباب فصولا فى النقد كانت موضع الاعجاب فى (البلاغ) . ولكنك تقول إن النقد ظاهرة من ظواهر الشبيبة تحدث دائماً فى شِرَّة العمر ، حتى إذا انكسرت (مال الكاتب مع سجيته ، واختار الطريق الايجابى الذى يسلكه فى انتاجه) ، كما وقع لك ؛ ثم تخرج من ذلك إلى أن العلة فى ركود النقد هى أن الشباب لا يقرأ ، وإذا قرأ لا يمحص ، وإذا محص لا يثور فينقد . وفى هذه الفكرة وحدها ينحصر الخلاف بينى وبينك

أنا أفهم أنك تنصرف عن النقد إلى معالجة السيرة النبوية بهذا التحليل المنطقى البارع ، لأنه أجدى على الناس ، وأعود على الأدب ، وأجدر بالكاتب المرسَل ؛ ولكننى لا أفهم أن يكون انصرافك عن النقد نتيجة محتومة لانصراف الشباب عنك ؛ لأن ذلك يناقض طبيعة النقد فى ذاته ، ولا يوائم فيما أظن قولك : « إن نقد الأثر الأدبى يدل على علو الكعب فى العلم أو فى الثقافة أو فى التهذيب »

يخيل إلىّ أن منشأ هذا الخلاف أنك سميت التمرد نقداً ، والنقد تحليل تاريخ وتعليل أدب ؛ فان من أقوى خصائص الشباب ذلك الطموح الذى يولد القلق ، والقلق الذى يخلق التمرد ، والتمرد الذى يحدث الثورة . فى هذا معنى الحياة ومعنى التطور ومعنى التكمل ومعنى التحرر ، ولكن ليس فيه على الكثير الغالب معنى التمييز الذى يقتضى طول الخبرة ، والتفضيل الذى يوجب شمول العلم ، والحكم الذى يطلب نزاهة العقل

إنك لا تستطيع أن تُخَلّص الشباب من سطوة الهوى وفتنة الغرور وغلبة العاطفة ؛ وأولئك هن آفات النظر الفاحص والرأى المستقر ؛ فالشاب يخضع فى أحكامه لتأثير الساعة من قراءة أو صداقة أو استفزاز أو اشمئزاز أو إيحاء أو مرض ؛ وهو فى تسبيب هذه الأحكام يتعارض مع المعروف ويتناقض مع الواقع

هذا كاتب شاب أعجلته ضرورات العيش عن استكمال العدة للكتابة ، فهو يكتب بقوة المحاكاة ، لا يحور إلى فن ولا يجرى على مذهب ؛ وهو بالطبع يفتقد الكلام المعرب والأسلوب المحكم والأدب الموروث ، على حين يحفظ عن ظهر الغيب قواعد اللغة الأجنبية ، ولا يجيز لنفسه أن يخطئ فى صيغها المتعددة ولا فى إملائها المعقد . وهذا أديب شاب ينتقدك أنت ويرميك بالرجعية وتمليق العامة ، لأنك كتبت عن (محمد) بعد أن كتبت عن (روسو) و(شلى) . وهذا مؤلف شاب له كتاب فى نقد (حافظ) لم أقرأه بعد ، كتب إلى يتهمنى بأنى قصدته بتقالى لأنى كتبته على أثر ظهور كتابه . ويقول إنه يستطيع أن ينقد ما كتبته فى الرواية المسرحية بأنه منقول عن الفرنسية . ودليله بالطبع أن هذا الموضوع لا مرجع له فى أدب العرب ، إذن فمن أين جاء ؟ من اللغة الفرنسية التى أعلمها ! ولو كنت أعلم الانجليزية مثلاً لكان النقل عنها ولاشك ، ما دام النقد فى عرفه حكما من غير تعليل ودعوى من دون دليل . ولا أدرى لم لم يقل إن كتابى فى تاريخ الأدب العربى منقول عن العربية كذلك لأن مراجعه منها !

فهل يرى الدكتور فى مثل هذا النقد أنه كما قال « تناوُلٌ لمواد الحياة العقلية والأدبية وهضمها وتمحيصها وتمثُّل الصالح منها ونفى الزائف عنها ؟ » أم الحق أن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشّيب ولا إلى الشباب ، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب ؟

احمد حسن الزيات

قصةُ الأيدى المتوضِئة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة ؛ والمسجد يجمع الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسان من دنيا ذاته ، فلا يفكِّر أحد أنه أسمى من أحد ؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانعُ أو الأجير أو الفقير أو الجاهل ، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغنى أو العالم ، فتنظر اليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضِّئةٌ متطهِّرة ؛ وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحَها ، وكلمة التواضع قد وجدت روحَها ؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحربَ للنفس المنفردة . ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيتَ الفقير إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرتَ اليه ساكناً وهو يتكلم فى قلبك ، وشعرت بالله من فوقكما ، واستملتْ لك روحُ المسجد كأنها تَهُمُّ بطردك ، وخيِّل اليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت ، وأيقنتَ من ذات نفسك أن لست هناك فى دنياك وليس صاحبك فى دنياه ، وإنما أنتما هناك فى انسانية ميزانُها بيد الله وحده ؛ فلا تدرى أيكما الذى يخفّ وأيكما الذى يثقل (١)

قال : والعجيب أن هذا الذى لا يجهله أحد من أهل الدين ، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر ، فتراه فى المسجد يمشى مختالاً ، قد تحلى بحليته ، وتكلَّف لزَهْوه ، فلبس الجبة تسع اثنين ، وتطاول كأنه المِئذنة ، وتصدَّر كأنه القِبلة ، وانتفخ كأنه ممتلىء بالفروق بينه وبين الناس ؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهَهُ لانكشف عن تاجر علم بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكل بها ، فلا يجد دنيا ذاته إلا فى المسجد ، فهو نوع من كذب العالم الدينى على دينه

***

قال الراوى : وصعد الخطيب المنبرَ ، وفى يده سيفُه الخشبيُّ يتوكأ عليه ؛ فما استقر فى الذِّروة حتى خُيِّل إليَّ أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه ، وكالهرِم يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرت فاذا هو كذب صريح على الاسلام والمسلمين ، كهيئة سيفه الخشبي فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها

وتالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدين الاسلامى فى هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبةَ جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضَّعة والتراجع والانقلاب والادبار والهزل والسخرية والفضيحة والاضحاك ؛ ومتى كان الاسلام يأمر بنجْر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها فى أيدى العلماء يَعْتَلُونَ بها ذُؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها المعنوية الدينية التى يجب أن تتجسَّم لتُرى ؟

أى سيفٍ من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الارادة ؟

قال : وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبى الذى صنعته وزارة أوقاف المسلمين أنه فى طول صَمْصَامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس الجاهلية والاسلام (١) فكان الى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب ...

قال : وكان الخطيب إذا تكلَّف وتصنَّع وظهر منه أنه قد حَمِيَ وثار ثائره ــ ارتجَّ وغفل عن يده فتضطرب فيها قبضةُ السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة . . . . لا تصلح لهذه الحماسة

***

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سيفُه الخشبى يخطب خطبة أخرى ؛ فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها إذ هى كالقراءة لاقامة الصلاة ، وكانت فى عهدها الأول كالدرس لاقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة ،

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد فى مقالات كثيرة من مقالاتنا فى الرسالة

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر

فبينها وبين حقيقتها الاسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الاولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتُها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها وهذه هى عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ! لو كنتُ بقية من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنس البشرى لما كان لكم أن تضعونى هذا الوضع ، وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، تكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً لأن فىَّ وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة

ويحكم ! لو أنه كان لخطيبكم شىء من الكلام النارىّ المضطرم لما بقيت الخشبة فى يده خشبة . وكيف يمتلىء الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمةَ الدين من الحق الغالب وكلمةَ الحياة من الحق الواجب ـ وهو كما ترونه قد انتهى من الذل الى أن فقد السيفُ روحه فى يده ؟

أيها المسلمون ! لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم الدافع عنكم ؛ أيها المسلمون غيِّروه وغيرونى [1]

* * *

قال راوى الخبر : ولما قُضِيَتْ الصلاة ماج الناس إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم . ثم قام أحدهم فخطب فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغيُّر أحوال أهلها ، ونكبتَهم وجهادهم واختلال أمرهم ؛ ثم استنجد واستعان ودعا الموسر والمخِفّ الى البذل والتبرع وإقراضِ الله تعالى ؛ وتقدم أصحابه بصناديق مختومة ، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هى فى هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم

قال : وكان الى جانبى رجل قَروى من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير فى وجوههم والصبر فى أجسامهم والقناعة فى نفوسهم والفضل فى سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زُروعا ومن أنفسهم زروعا أخرى — فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغى أن تكون خطبة المسلمين إلا فى أخص أحوال المسلمين

قال : ونبهنى هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق فى حكمة هذه المنابر الاسلامية ؛ فما يريد الاسلام إلا أن تكون كمحطات الاذاعة يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة هى الكلمة الأسبوعية فى سياسة الأسبوع أو مسئلة الأسبوع ؛ وبهذا لا يجىء الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت فيصبح الخطيب ينتظره الناس فى كل جمعة انتظار الشىء الجديد ؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل

قال : وخيِّل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب فى هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف لأن السياسة تُكرهه أن يخلع إسلاميتَه الواسعة قبل صعوده المنبر وألاَّ يصعد إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذى هو مع ذلك نصفُ وعظ ... فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف . . .

قال : وأخرج القروى كيسه فعزَل منه دراهم وقال هذه لطعام أتبلَّغ به ولأوبتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ؛ واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت فى صناديقهم كل ما معى ؛ ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يسبنى ما دام معى إلى أن يخرج عنى

* * *

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن فاذا هناك رجال من علماء المسلمين ، إثنان أو ثلاثة (الشكُّ فى ثالثهم لأنه حليق اللحية) . ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللالحية) فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع فى بعض المصريين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » ؛ وكل امرىء فانما تُبَصِّره مرآته كيف يظهر فى أحسن تقويم ، أبلحية أم بلا لحية . . . ؟

وأدرت عينى فى وجوههم فاذا وقار وسَمْتٌ ونور لم أر منها شيئاً فى وجه صاحب (اللالحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحيةَ رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذى فن عظيم ، إلا ذكرت هذا المعنى الشعرىّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار

(١) نرجو من أستاذ المسلمين وشيخ الجامع الأزهر أن يتقدم إلى وزارة الأوقاف فى جمع هذه السيوف الخشبية وتكسيرها وبيعها وقودا ؛ وإن لم تكن الحقيقة فلا معنى لتزويرها هذا التزوير المضحك

من أن لله تعالى ملائكة يُقْسِمون : والذي زين بني آدم باللحى

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافيةً على طبيعتها فامتدت وعظمت حتى تَنَشَّرَتْ حولها جوّاً روحانياً من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بُعد ، فكان هذا أبلغ رد على ذاك

***

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافيةً صُلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركة لا فنُّ خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قوى الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخبر : تَعِس عبدُ الدينار ، تَعِس عبدُ الدرهم ، ووالله ما تعس المسلمون الا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً ؛ « ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثة اللَّهْفان » ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون فى خطبهم أحاديث مع أنها هى كلمات القلوب . فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب اغاثة اللهفان » لأسرع العامة الى ما يحبه الله

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فاذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم ؛ فنحن فى آخر الزمان وقد سُلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم الى صبيانية جديدة

قال الراوى : فقلت لصديق معى : قل لهذا الشيخ ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القوى الجرىء كما نرى فى أيامنا هذه فينزلون من الكبار تلك المنزلة إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث : أمتى كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره

***

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه حتى وقعت الصيحة فى المكان فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زجرة واحدة ، وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة أو خامسة . وفرغ الشاب من هديره فتحول اليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم

فقال أحد الشيوخ : ممن أنت يا بنى ؟ قال : من جماعة الاخوان المسلمين . قال الشيخ . لم يخف علينا مكانك وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفى أصحابك

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

ثم تحركت النفس بوحى الحالة فد أولهم يده الى جيبه ، ثم دسها فيه ! ثم عيَّث فيه قليلا(١) ؛ ثم . . . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها

وانتقلت العدوى الى الباقين فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه . وظهرت فى يد الثالث سبحة طويلة . وأخرج الرابع سواكا فر به على أسنانه . وجرَّ الخامس كراسة كانت فى قبائه . ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه الى لحيته يخللها . أما السابع صاحب (اللالحية) فثبتت يده فى جيبه ولم تخرج كأن فيها شيئاً يستحى إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة

وسكت الشاب وسكت الشيوخ وسكت الصندوق أيضاً

قال الراوى : ونظرت فاذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ . فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى

***

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدى المتوضئة) ، قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق ، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل الا بما كددتَ فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف الى خشبة . ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاهل سخىٌّ أحب الى الله من عالم بخيل » ؛ ثم يملأون الصندوق . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

---

(١) أى بحث بأصابعه

إلى الأديب النابلسى : لا نرى ذلك الرأى فى تمثيل روايات الأنبياء فخروج نبى على مسرح التمثيل انما هو تزوير نبى . وهذا يكفى

الرافعى

الجانب الصـــوفى
فى الفلسفة الاسلامية[1]
للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

نجتمع الليلة — أيها السادة — لنناجى القلب ونحادث الروح . ومناجاة القلب طهرة لمن شاء أن يتطهر ، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس . ومحادثة الروح عروج إلى سماء النور والملائكة ، وصعود إلى عالم الفيض والالهام . نجتمع الليلة لنهجر الأجسام زمناً ونفرغ إلى نفوسنا حيناً . والجسم والنفس كانا ولا يزالان فى صراع دائم ومعركة مستمرة ، يقدر فيها لأحدهما الفوز تارة وللآخر أخرى . وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن فيض وإلهام وروح ونفس فى عصرنا الحاضر الذى طغت فيه المادة على كل شىء ، فأصبحنا لا نؤمن إلا بكل مشاهد ، ولا نسلم إلا بكل مرئى . بيد أنا حتى فى هذا العصر المادى نشعر بحاجة ماسة إلى كشف ما غاب عن أبصارنا وانطوت عليه نفوسنا ، ونركن كثيراً إلى ما تمليه ضمائرنا . وما دام فينا قلب يخفق وعاطفة تتأجج ، فانا لا نستطيع انكار لغة القلوب والأرواح ؛ وإذا تتبعنا المذاهب الفلسفية على اختلافها وجدنا أنه لم يخل واحد منها من نزعة صوفية . وها هوذا أرسطو الذى كان واقعياً فى بحثه وطريقته ، ورجل مشاهدة وتجربة فى ملاحظاته واستنباطاته ، قد انتهى به الأمر إلى أن بنى دراسته النفسية على شىء من الفيض والالهام ، ووضع فى قمة الأخلاق فضائله العقلية التى هى أسمى درجة من درجات التأمل والمشاهدة الصوفية

حقاً إن الادراكات الروحية والالهامات القلبية قد تكون غير يقينية ، أو قد يعز على الأقل اثباتها ببراهين قطعية يتقبلها الآخرون ؛ إلا أنها مبعث طمأنينة وهدوء وسكون ؛ ذلك لأنها معرفة شخصية مباشرة ؛ والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب . وكم يجهد الانسان نفسه فى صوغ الأقيسة واقامة البراهين لاثبات أمر ما دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه . وقديماً مر الغزالى بمراحل من البحث والنظر ، واشتغل بدراسات كثيرة ، ولكن لم تطب نفسه إلا للمعرفة الصوفية تفيض عليه فيضاً وتُلهَمها إلهاماً . وحديثاً شك ديكارت فى كل شىء ، اللهم إلا فى نفسه وتفكيره . ولما انتهى إلى هذه الحقيقة الثابتة كانت أساس اليقين فى رأيه ونقطة البدء لكل فلسفته . وهناك فلسفات قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله ؛ فأفلوطين فى مدرسة الاسكندرية يرى أن الجذب والفيض هما السعادة التى ليست وراءها سعادة ؛ وقد جد شخصياً فى تحقيقهما طول حياته ، ولم يحظ بهما إلا بضع مرات . ومالبرنش فى القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربه . فمعرفتنا ليست إلا فيضاً من الله ، وما يبدو منا من عمل خارجى ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله ، وبهذا يتلاشى المخلوق فى الخالق ، ويندمج الأثر فى المؤثر

لسنا نحاول هنا التحدث عن التصوف فى جملته ، ولا التعرض لمختلف مظاهره وأدواره منذ نشأته ، وإنما نريد فقط أن نفصل القول فى نزعة صوفية سادت الفلسفة الاسلامية ؛ فنتبين كيف تكونت وشبت ونشأت ، ونشرح الأصول التى صدرت عنها ، والعوامل التى أثرت فيها ، ونحدد مدلولها ومرماها . وإذا ما تم لنا هذا استطعنا أن نوضح آثارها ونتائجها . فحديث القلب والروح الذى نحن بصدده مقصور على ما جاء به الفلاسفة المسلمون ، وموقف على الجانب الصوفى فى الفلسفة الاسلامية . وما كان أجدرنا فى بحث كهذا أن نستعمل لغة خاصة وأسلوباً خاصاً ، بل وأن نلجأ إلى مكان خاص ، فان لغة العقل تعجز أحياناً عن التعبير فى دقة عما يكنه القلب ، وأسلوبنا المشوب بشوائب مادية قد لا يجد السبيل إلى وصف الالهامات النفسية ، والأرواح التى تسبح فى عالم النور تعز مناجاتها فى حيز المادة والجسم المحدود . ولعل الصوفية مصيبون فى التزيى بزى خاص ، كى يتفق ظاهرهم مع باطنهم ، وفى اتخاذ لغة معينة تفصلهم عمن سواهم ؛ غير أن هذه اللغة زادت آراءهم تعقيداً ،

(١) محاضرتان ألقيتا فى الجمعية الجغرافية مساء يومى الأربعاء ١٨ و ٢٥ مارس سنة ١٩٣٦

وكست نظرياتهم بثوب كثيف من الغموض والابهام . وسنجتهد في أن نجلي غامضها ، وأن نقربها ما استطعنا من العرف المألوف

عنى الباحثون من قديم بدراسة التصوف الاسلامي في جملته مدفوعين غالباً عما في الموضوع من طرافة ، ومحاولين أن يكشفوا ما احتواه الاسلام والشرق من حقائق وأسرار . ويغلب على الظن أن الأبحاث الصوفيـة أول موضوع استلفت أنظار المستشرقين ؛ ولا تزال هذه الأبحاث محل عنايتهم حتى اليوم ؛ ومؤلفاتهم فيها تزيد كثيراً على ما كتبوه في الدراسات الاسلامية الأخرى . ولا غرابة فالغرب متعطش دائماً إلى تعرف صوفية الشرق . وكأن هذا الأخير وهو مصدر النور والضوء أبى إلا أن يكون في الوقت نفسه مقر القوى الخفية والأسرار الغامضة . ودون أن نعرض لكل من اشتغلوا بموضوع التصوف من كبار المستشرقين نكتفي بأن نشير إلى رجال القرن العشرين ، ونخص بالذكر منهم جولد زيهير النمسوي الذي عقد للتصوف فصلاً ممتعاً في كتابه « عقيدة الاسلام وقانونه[1] » بجانب أبحاث أخرى قيمة ؛ والأستاذ مكدونلد الأمريكي الذي وضح كثيرا من آراء الغزالي الصوفية ، والأستاذ نكلسون المدرس بجامعة كمبردج ، والاستاذ ماسنيون المدرس بكليج دي فرنس ، والدكتور محمد اقبال العالم الهندي المشهور ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً يجب أن نضع نكلسون وماسنيون ، فانه يرجع إلى الأول الفضل في نشر كثير من مخلفات الصوفية القيمة والتعريف عنها ؛ أما أستاذنا ماسنيون فقد رسم في التصوف طرائق جديدة ، وقدم لنا عن الحلاج صورة غنية بالألوان والمعاني الدقيقة في كتاب يعد أوسع مؤلف في تاريخ التصوف الاسلامي[2]

غير أن آراء فلاسفة الاسلام الصوفية لم تدرس بعد ولم توجه إليها العناية التي تستحقها . حقاً إن مهرن المستشرق الدنمركي ، تنبه إلى بعض مؤلفات ابن سينا الصوفية ، وقام بنشرها

(١) I. Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islam, tr, fr. Paris, 1902

(٢) L. Massignon, La passion d'al Hossayn ibn Mansour al Hsllâj, Paris, 1922

وترجمتها[1] . كما أن البارون كارادي ڤو لمح لدى الفارابي نزعة صوفية واضحة[2] . إلا أن هذه الابحاث ناقصة وغير ناضجة . وعلى هذا لا زلنا نجهل أفكار فلاسفة الاسلام الصوفية كما نجهل نظرياتهم الفلسفية بالمعنى الدقيق . وكل ما نرجوه أن نكشف الغطاء عن هذه الناحية وأن نوجه الأنظار إليها

إذا شئنا أن نعرف أقدم صورة للأفكار الصوفية عند فلاسفة الاسلام ، وجب علينا أن نصعد الى أبي نصر الفارابي . فانه أول من صاغ الفلسفة الاسلامية في ثوبها الكامل ووضع أصولها ومبادئها . نحن لا ننكر أن الكندي تنبه قبله إلى دراسة أفلاطون وأرسطو وعرض لبعض نظرياتهما بالشرح والاختصار ؛ ولكننا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً بكل معاني الكلمة ، بل هي نظرات متفرقة ومتعلقة بمواضيع مختلفة لا رابطة بينها[3] . أما الفارابي فقد لم هذا الشمث وأقام دعائم مذهب فلسفي متصل الحلقات . ومن أهم أجزاء هذا المذهب وعلى قمة هذا البناء نرى نظرية صوفية امتازت بها الفلسفة الاسلامية من كثير من الفلسفات الأخرى . فالتصوف إذن قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية كما يزعم كارادي ڤو . ولا أدل على هذا من أن هناك رباطاً وثيقاً يربطه بالنظريات الفارابية الأخرى نفسية كانت أو أخلاقية أو سياسية . وقد أثر هذا التصوف تأثيراً عميقاً فيمن جاء بعد من فلاسفة الاسلام

لعل أخص خصائص النظرية الصوفية التي قال بها الفارابي أنها قائمة على أساس عقلي . فليس تصوفه بالتصوف الروحي البحت الذي يقوم على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ لتطهر النفس وترقى مدارج الكمال ، بل هو تصوف نظري يعتمد على الدراسة والتأمل . وطهارة النفس في رأيه لا تقصد عن طريق الجسم والأعمال البدنية فحسب ، بل عن طريق العقل والأعمال الفكرية أولاً وبالذات . هناك فضائل عملية جسمية ولكنها لا تذكر في شيء بجانب الفضائل العقلية النظرية ، ولئن كانت

(١) A. F. Mehren, Traités mystiques d'Avicenne, voir aussi, Le Museon, t. I, II, III et IV

(٢) Carra de Vaux, al Fârâbî, dans Encyc. de l'Islam, t. II, pp. 57-59

(٣) Madkour, La place d'al Fârâbî, p, 9

الأعمال الحسنة والخلال الحميدة بعض الخير ، فالخير كل الخير فى مسألة نتدارسها وحقيقة نكشفها ومعرفة تتهذب بها نفوسنا وتسمو عقولنا . وذلك أن العقل البشرى سالكا سبيل رقيه وتطوره يمر بمراحل متدرجة بعضها فوق بعض . فهو فى أول أمره عقل بالقوة ، فاذا ما أدرك قدراً كبيراً من المعلومات العامة والحقائق الكلية أصبح عقلاً بالفعل . وقد يتسع مدى نظره ، ويحيط بأغلب الكليات فيرقى إلى أسمى درجة يصل إليها الانسان وهى درجة العقل المستفاد أو درجة الفيض والالهام . وعلى فى هذا ما يبين كيف اتصل التصوف عند الفارابى بعلم النفس ، ونظرية المعرفة

ولن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل التصوف الفارابى متين الصلة بالنظريات الفلكية والميتافيزيقية ، فان الفارابى يتخيل نظاما فلكياً أساسه أن فى كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقا يشرف على حركتها ومختلف شؤونها ، وآخر هذه القوى وهو العقل العاشر موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضى ، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوى والسفلى ، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوى ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة ، فاذا وصل إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلا لتقبل الأنوار الألـهية وأضحى على اتصال مباشر بالعقل العاشر . فبالعلم والعلم وحده يمكننا أن نربط السماوى بالأرضى والالـهى بالبشرى والملائكى بالانسانى ، وأن نصل إلى أعظم سعادة ممكنة . والمعرفة النظرية الميتافيزيقية هى أسمى غاية ينشدها العقل الانسانى . وإذا ما انتهينا إلى هذه المرتبة تحررت نفوسنا بتاتا من كل ما هو مادى وجسمى والتحقت بالكائنات العقلية واطمأنت إلى حالها هذه راجية أن تبقى فيها إلى النهاية

هذه هى السعادة التى تنحو نحوها الفلسفة والأخلاق ويصوب إليها النظر والعمل ويسعى إليها الانسان بدراسته وسلوكه ، هى الخير المطلق وغاية الغايات ومنتهى الرفعة الانسانية وجنة الواصلين ، يقول الفارابى : « والسعادة هى أن تصير نفس الانسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً ، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال ، وإنما تبلغ ذلك بأفعال إرادية ، بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية ، وليست بأى أفعال اتفقت ، بل بأفعال محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما وملكات ما مقدرة محدودة . وذلك أن من الأفعال الارادية ما يعوق عن السعادة ، والسعادة هى الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلاً ولا فى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر ؛ وليس وراءها شىء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الانسان . والأفعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة . والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى الفضائل ؛ وهذه ليست خيراً لذاتها ، بل لما تجلب من سعادة . والأفعال التى تعوق عن السعادة هى الشرور والأفعال القبيحة . والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى النقائص والرذائل والخسائس(١) »

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة فى كلية الآداب

(١) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٧

تطور العقلية الاسبانية
فى تقدير تراث الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى أوائل سنة ١٩٢٩ ، احتفلت جامعة غرناطة بذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مضى ألف عام على قيامها (١) فكان أول حادث رسمى من نوعه ينم عن تطور عميق فى تقدير اسبانيا النصرانية لتراث الأندلس المسلمة

وتاريخ الاسلام فى الأندلس مرحلة باهرة فى تاريخ اسبانيا القومى ، بل أعظم مراحله وأسطعها ، فقد لبث العرب فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون أنشأوا فيها أعظم حضارة عرفت فى العصور الوسطى ، وكانت وحدها مدى هذه العصور مورد النور والعرفان لأمم الشمال ؛ وأخرج المسلمون من اسبانيا بعد أحقاب من الكفاح المتواصل ، فتركوا فى اسبانيا طابعهم الخالد ؛ وما زالت آثارهم الباقية تشهد بعظمة عصرهم وحضارتهم ، وما زالت الحياة الاجتماعية الاسبانية تنم فى كثير من نواحيها عن تأثير العرب ورسومهم وتقاليدهم

ولكن اسبانيا النصرانية لم تقنع بسحق الأندلس المسلمة ، واستعادة آخر بقعة للاسلام فى اسبانيا ، بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسمت ، وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صفحة حياتها ، وأن تدفن ذلك الماضى المجيد إلى الأبد ، وأن تعتبره محنة قومية نزلت بها ، وأن تمحوه من صحف تاريخها القومى ؛ وتأثر التفكير الاسبانى بأهواء السياسة المتعصبة ، فأشبع بهذه الروح المجحفة ؛ ولبث الأدب الاسبانى عصورا يشيع بلعناته المتواصلة عصر الاسلام وتراثه ، وكل ذكرياته ؛ ولم ينج التاريخ من هذه النزعة المغرضة ، فطغى التعصب على المرحلة الاسلامية من تاريخ اسبانيا القومى ؛ وكتب المؤرخون الأسبان تاريخ العرب فى اسبانيا بروح عميق من التحامل ، وجعلوا جل اعتمادهم على الروايات النصرانية القديمة التى تفيض بمختلف الأكاذيب والتهم ، ولم يفكروا فى مراجعة المصادر الاسلامية والانتفاع بها ؛ ذلك أن اسبانيا النصرانية أصدرت منذ غداة ظفرها حكمها على المغلوب ، ولم ترد بعد ذلك أن تسمع صوتاً للأندلس الذاهبة ، أو أن تراجع ذلك التراث الذى تعتبره رجساً ، وترى فيه عنوان عصور مشئومة ، مليئة بالمحن القومية

وبهذه الروح كتب أكابر المؤرخين الأسبان تاريخ اسبانيا ، فكتب ماريانا فى عصر شارلكان تاريخ اسبانيا العام ، وخصص منه مجلدين كبيرين لتاريخ الأندلس ، ولكنه كان متحيزا متحاملاً يغدق المطاعن والتهم على العرب وعصور الاسلام ؛ وحذا حذوه من جاء بعده من المؤرخين ؛ وطبعت مؤلفاتهم جميعاً بهذا الطابع المغرض ؛ وكانت السياسة الاسبانية تحرص دائماً على حجب آثار العصر الاسلامى ، وتخفيها عن كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، وهى لم تدخر وسعاً فى مطاردة هذا الروح وقتله ؛ ولبثت الآثار الاسلامية عصوراً مقبورة فى أقبية الأسكوريال المظلمة ، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر تبلغ زهاء عشرة آلاف مجلد جمع معظمها أيام سقوط غرناطة ، وضمت اليها بعد ذلك نحو ثلاثة آلاف مجلد كانت للسلطان زيدان السعدى ملك مراكش ؛ وكانت مشحونة فى مركب مغربى لتنقل إلى بعض ثغور المغرب خوفاً على ضياعها أثناء الفتنة ، فأسرتها بعض المراكب الاسبانية وحملت شحنتها إلى اسبانيا (١) ؛ وفى أواخر القرن السابع عشر أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس محنة أليمة ، إذ شبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين . عندئذ استفاقت الحكومة الاسبانية من سباتها ؛ وحررت ذهنها بعض الشىء من ذلك التعصب العميق الذى صرفها عصوراً طويلة عن العناية بهذا التراث ، واستدعت من رومة حبرا شرقياً وعلامة لغوياً كبيراً هو ميشيل الغزيرى اللبنانى الذى يعرف فى الغرب باسم

---

(١) اتخذ عبد الرحمن الناصر سمة الخلافة فى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وقامت فى قرطبة خلافة أموية ، إلى جانب خلافة بغداد فى المشرق

(١) وقع هذا الحادث فى أواخر عهد فيليب الثالث ملك أسبانيا حوالى سنة ١٦٢٠ م

(كازيرى) Casiri ، وعهدت اليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها ؛ فلبث الغزيرى أعواماً طويلة يدرس وينقب فى تلك المخطوطات حتى أتم المهمة ، وأخرج فى سنة ١٧٦٠ باللاتينية فهرسه الجامع بعنوان « المكتبة العربيـة الاسبانية فى الأسكوريال» Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis وصدر كازيرى معجمه بمقدمة طويلة شرح فيها قيمة المخطوطات العربية وأهميتها ، ونقل فى فهرسه نبذا كثيرة من بعض الآثار الهامة ؛ فأثار ظهور هذا الفهرس الجامع لأول مرة اهتماماً كبيراً فى دوائر البحث والتفكير ، ولفت نظر المؤرخين الاسبان إلى تلك الناحية الهامة من تاريخ اسبانيا القومى ، وإلى تلك المراجع النفيسة التى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس وأحوال المجتمع الاسلامى ؛ وعنى طائفة من الباحثين فى أواخر القرن الثامن عشر مثل أندريس وماسدى ببحث المصادر العربية والانتفاع بها ، والاقتباس منها ؛ وأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدى مؤلفه الجامع عن تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية Historia Critica de Espana y de la Cultura espanola وفيه نبذ شائقة عن المجتمع الاسلامى ونواحى التفكير الاسلامية مستمدة من المراجع العربية ؛ وهكذا بدأ تطور الروح الاسبانية فى تقدير التراث الاسلامى ، وظهر صوت الأندلس المسلمة لأول مرة فى التواريخ العامة والخاصة

على أن هذا التطور المحمود من التحامل والتعصب إلى جانب الروية والانصاف لم يقف عند هذا الحد ، ففى أوائل القرن التاسع عشر عمد المؤرخ يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد إلى دراسة المراجع العربية فى الاسكوريال دراسة مستفيضة ورأى أن يكتب تاريخ أسبانيا المسلمة بصورة جديدة هى الصورة التى تقدمها إلينا المراجع العربية ، أو بعبارة أخرى رأى أن يكتب تاريخ الأندلس كما يعرضه تراثها العربى ، وكانت نتيجة هـذه الدراسة كتابه الشهير « تاريخ دولة العرب فى أسبانيا » Historia de la Dominacion de Los Arabos en Espana الذى صـدر الجزء الأول منه سـنة ١٨١٠ ؛ وتوفى كوندى فى نفس العام ، فنشر الجزءان الباقيان من مخطوطاته فى العام التالى ؛ وليس مؤلف كوندى قوياً من الناحية النقدية ، لأن مؤلفه ينقل مختلف الروايات العربية دون تمحيص ، ولأنه يقع فى كثير من الأخطاء التاريخية التى ترجع فى الغالب إلى عدم الدقة فى النقل ؛ ومع ذلك فانه يمتاز بالصراحة الجمة حتى أن كوندى يذهب فى كثير من المواطن إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وإرغامهم على التنصير ، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم فى غمر من الفظائع والدماء ؛ وأهمية مؤلف كوندى فى أنه يعرض للغرب لأول مرة أقوال الرواية العربية مستمدة من مصادرها الأصيلة ، ومنها تعرف وجهة النظر الأندلسية فى كثير من الحوادث والشؤون

وكان صدور مؤلف كوندى حادثاً فريداً فى كتابة التاريخ الأسبانى ، وكان أول مؤلف من نوعه يسجل كلمة الأندلس فى المرحلة التى قطعتها من تاريخ اسبانيا القومى ، ويسجل فى نفس الوقت بدء عهد جديد من حرية البحث والتقدير ؛ ومن الغريب أن كتاب كوندى صدر فى نفس الوقت الذ صدر فيه أثر تاريخى آخر كان لصدوره أعظم وقع فى اسبانيا وفى أوربا ، وهو كتاب الدون انتونيو لورنتى عن تاريخ محاكم التحقيق (التفتيش) الأسبانية ، وعن نظمها واجراءتها الدموية ، وفيه يورد مؤلفه طائفة عظيمة من الوثائق الرسمية التى تكشف عن فظائع هـذه المحاكم الشائنة ، وخصوصاً فى مطاردتهـا للعرب والعرب المتنصرين ، ويورد فى نفس الوقت طائفة كبيرة من القضايا والمحاكمات الخاصة بالعرب المتنصرين مستمدة من وثائقها الأصلية ؛ وكان كتاب لورنتى فتحاً جديداً فى هذه الناحية من تاريخ العرب المتنصرين . وكان لصدوره وقع عظيم فى أوربا ، خصوصاً وأن مؤلفه من أكابر رجال الدين والكنيسة ، وقد لبث أعواماً طويلة سكرتيراً عاماً لديوان التحقيق (التفتيش) واستطاع أن يستخرج وثائقه من محفوظات الديوان الرسمية ذاتها

وفى أواسط القرن التاسـع عشر عنى العلامة المستشرق الأسـبانى دون باسكوال دى جايَنجوس بدراسة المصادر العربية فى تاريخ الأندلس ، وقام بترجمة القسم الأول من كتاب « نفح الطيب » للمقرى إلى الانكليزية مع بعض التصرف وسماه « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا » History of Mohamedan Dynasties in

Spain ؛ وظهرت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٤٠ فى مجلدين كبيرين مقرونة بملاحظات ومقارنات نقدية قيمة ؛ ولم تمض أعوام قلائل على ذلك حتى صدرت فى ليدن ترجمة فرنسية لهذا القسم الأول من كتاب المقرى بقلم المستشرقين دوزى ودوجا تحت عنوان « مختارات فى تاريخ وآداب العرب فى اسبانيا »
Analectes sur l'Histoire et la littérature des Arabes d'Espagne
(سنة ١٨٥٥ ـ ١٨٦١)

وهكذا وقفت اسبانيا ، ووقف الغرب ، بعد عصور طويلة من النسيان والتحامل على وجهة النظر الاسلامية فى التاريخ الأندلسى ، وسقط ذلك الحجاب الكثيف الذى ضربته السياسة الأسبانية مدى ثلاثة قرون على تراث الأندلس وآدابها ، وتطورت فكرة التاريخ الأسبانى ومادته ، وأدرك المؤرخون المحدثون أهمية المرحلة الاسلامية فى تاريخ اسبانيا القومى ، وعدلوا كثيراً من الآراء والأحكام المجحفة التى أصدرها المؤرخون القدماء نزولا على مؤثرات الجهل والتعصب القومى والدينى والسياسى

ونرى فى أواخر القرن التاسع عشر جماعة من أعلام المستشرقين الأسبان يبذلون جهداً عظيما فى نشر مجموعة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى تحتويها أروقة الأسكوريال ، باسم المكتبة الأندلسية ، وهى مجموعة نفيسة فى عشرة مجلدات ، تحتوى على عدة كتب لابن بشكوال ، وابن الآبار ، والضبى ، وابن الفرضى ، وأبو بكر الاشبيلى ، وتعليقات وفهارس مفيدة . وقد ظهرت المجموعة بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٩٤ فى مدريد وسرقسطة ، وكان الجهد الذى بذل فى إخراجها تحية جديدة من اسبانيا الجديدة لتراث العرب والاسلام فى الأندلس

وأخيراً توجت تلك الجهود الحرة الموفقة لبحث الصلات والعلائق القومية بروح الانصاف والنزاهة ، بقيام جامعة غرناطة بالاحتفال بالذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وعصرها الباهر ، وهى خطوة كان لها أعظم وقع فى اسبانيا وفى العالم الاسلامى

وهكذا يتبوأ تاريخ الأندلس وتراث الاسلام فى اسبانيا مكانته الحقة فى التاريخ القومى ، وفى الآداب التاريخية الغربية ، بعد عصور طويلة من التعصب والتحامل والنسيان

محمد عبد الله عنان

بين عالمين

نظام الطلاق فى الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

منذ بضعة أشهر أخرجت كتابى (نظام الطلاق فى الاسلام) فتقبله العلماء الأعلام فى مصر وفى سائر الأقطار بقبول حسن والحمد لله ، وأكثروا من الثناء عليه وعلى مؤلفه ، وجاءتنى كتب متواترة من كبار علماء الاسلام فى الحجاز والهند والعراق والشأم وغيرها ، ومن كبار المستشرقين فى أقطار أخرى ، ولا أرانى أهلاً لكل ما أثنوا به علىّ ، وإنما هو حسن الظن منهم ، وقد أعجزنى أن أوفيهم حقهم من الشكر على هذا الفضل الجمّ ، وأسأل الله أن يجزل لهم المثوبة على فضلهم

وفى بعض ما جاءنى من الكتب أبحاث قيمة من النقد العالى المبنى على الحجة والبرهان ، مما يصلح أن يكون مثالاً يحتذى للباحثين المجتهدين ، فى دقة النظر ، وعلو الفكر ، وأدب القول ، والتسامى عن العصبية والهوى ، والتزام ما ينصره الدليل الصحيح ؛ وهى الخصال التى نرجو أن يسير على نهجها كل عالم مفيد ، وكل طالب مستفيد ، وخصوصاً فى علوم الدين . وهى الخصال التى جاهد أسلافنا فى سبيل حمل الناس على الأخذ بها واتباعها ، ثم تبعناهم من بعدهم ، فجاهد اخوانى وجاهدت معهم فى سبيل ذلك جهادا كثيراً ، منذ نيف وعشرين سنة ، ولا نزال — والحمد لله — نسير على هذا النهج القويم ، والصراط المستقيم

ومما يجب علىّ ، إحقاقا للحق ، واتباعا لسبيل الهدى ، أن أفكر فيما ورد على كتابى من اعتراض ونقد ، وأعيد النظر فيما اخترتُ ورأيتُ ، وأكشف عن حجة خصمى وعن حجتى ، لى وللناظرين : فاما انتصر قول خصمى ورجعتُ عن قولى ، وإما انتصرتُ لقولى وزدته بياناً وتأييداً ، لا أبالى أى ذينك كان ، وإنما أنا طالب علم ، فأى قول أو رأى نصره عندى الدليل فانه العلم الذى أطلبه وأسعى اليه ، لا أبغى به بدلاً

ولذلك رأيت أن أنشر فى (الرسالة) الغراء — مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية — ما أراه جديرا بالنشر مما جاءنى من نقد واعتراض ، وأساجل كاتبيه البحث ، أملاً فى أن يشترك معنا كثير من العلماء الأعلام فى هـذا المجال ، علنا نصل إلى الحقيقة فيما كان موضع اختلاف ونظر . وقديماً قال الناس : الحقيقة بنت البحث .

ومن أشرف ما وصل إلىّ وأعلاه : كتاب كريم من صديق الكبير وأستاذى الجليل ، شيخ الشريعة ، وإمام مجتهدى الشيعة ، بالنجف الأشرف ، العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ؛ فقد تفضل — حفظه الله — بمناقشة رأيى فى مسئلة من مسائل الكتاب ، وهى (مسئلة اشتراط الشهود فى صحة مراجعة الرجل مطلقته) ، فانى ذهبت إلى اشتراط حضور شاهدين حين الطلاق ، وأنه إذا حصل الطلاق فى غير حضرة الشاهدين لم يكن طلاقاً ولم يعتدّ به . وهذا القول وإن كان مخالفاً للمذاهب الأربعة المعروفة إلا أنه يؤيده الدليل ، ويوافق مذهب الأئمة أهل البيت والشيعة الامامية . وذهبت أيضاً إلى اشتراط حضور شاهدين حين المراجعة ، وهو يوافق أحد قولين للامام الشافعى ، ويخالف مذهب أهل البيت والشيعة . واستغربت من قولهم أن يفرقوا بينهما ، والدليل واحد فيهما ، فرأى الأستاذ — بارك الله فيه — أن يشرح لى وجهة نظرهم فى التفريق بينهما فقال :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . وله الحمد والمجد

من النجف الأشرف ٨ صفر سنة ١٣٥٥ الى مصر

لفضيلة الأستاذ العلامة المتبحر النبيل الشيخ أحمد محمد شاكر المحترم أيده الله

سلامة لك وسلام عليك . وصلتنى هديتك الثمينة رسالة (نظام الطلاق فى الاسلام) ، فأنعمت النظر فيها مرة بل مرتين إعجاباً وتقديراً لما حوته من غور النظر ، ودقة البحث ، وحرية الفكر ، وإصابة هدف الحق والصواب . وقد استخرجتَ لباب الأحاديث الشريفة ، وأزحت عن محيا الشريعة الوضاءة أغشية الأوهام ، وحطمت قيود التقاليد القديمة وهيا كل الجمود بالأدلة القاطعة ، والبراهين الدامغة . فحياك الله ، وحيا ذهنك الوقاد ، وفضلك الجمّ

وأمهات مباحث الرســالة ثلاث : (١) طلاق الثلاث (٢) الحلف بالطلاق والعتاق (٣) الاشهاد على الطلاق

وكل واحدة من هذه المسائل الثلاث قد وفيتها حقها من البحث ، وفتحت فيها باب الاجتهاد الصحيح على قواعد الفنّ ومدارك الاستنباط القويم من الكتاب والسنة . فانتهى بك السير على تلك المناهج القويمة الى مصاص الصواب ، وروح الحقيقة ، وجوهر الحكم الآلهى ، وفرض الشريعة الاسلامية

وقد وافقت آراؤك السديدة فى تلك المسائل ما اتفقت عليه الامامية من صدر الاسلام الى اليوم ، لم يختلف فيها منهم اثنان ، حتى أصبحت عندهم من الضروريات ، كما اتفقوا على عدم وجوب الاشهاد فى الرجعة ، مع اتفاقهم على لزومه فى الطلاق ، بل الطلاق باطل عندهم بدونه

وقد ترجح عندك قول من يقول بوجوب الاشهاد فيهما معاً . فقلت فى صفحة (١٢٠) ما نصه : « وذهبت الشيعة الى وجوب الاشهاد فى الطلاق وأنه ركن من أركانه ، كما فى كتاب شرائع الاسلام . . . . ولم يوجبوه فى الرجعة . والتفريق بينهما غريب ولا دليل عليه » انتهى

وفى كلامك هـذا (أيدك الله) نظر أستميحك السماح فى بيانه ، وهو أن من الغريب حسب قواعد الفنّ مطالبةَ النافى بالدليل والأصل معه ! وإنما يحتاج المثبت إلى الدليل . ولعلك (ثبتك الله) تقول قد قام الدليل عليه ، وهو ظاهر الآية ، بناءً على ما ذكرته فى صفحة (١١٨) حيث تقول : « والظاهر من سياق الآيتين أن قوله : (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً » إلى آخر ما ذكرت ، وكأنك (أنار الله برهانك) لم تمعن النظر هنا فى الآيات الكريمة ، كما هى عادتك من الامعان فى غير هذا المقام ، وإلا لما كان يخفى عليك أن السورة الشريفة مسوقة لبيان خصوص الطلاق وأحكامه ، حتى إنها قد سميت بسورة الطلاق ، وابتدأ الكلام فى صـدرها بقوله تعالى : (إذا طلقتم النساء) ثم ذكر لزوم وقوع الطلاق فى صدر العدة ، أى لا يكون فى طهر المواقعة ولا فى الحيض ، ولزوم إحصاء العدة وعدم إخراجهن من البيوت ، ثم استطرد إلى ذكر الرجعة فى خلال بيان أحكام الطلاق ، حيث قال عز شأنه : (فاذا بلغن أجلهن

فأمسكوهن بمعروف) أى إذا أشرفن على الخروج من العـدة فلكم إمساكهن بالرجعة أو تركهن على المفارقة ، ثم عاد إلى تتمة أحكام الطلاق فقال : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) أى فى الطلاق الذى سيق الـكلام كله لبيان أحكامه ، ويستهجن عوده الى الرجعة التى لم تذكر إلا تبعاً واستطراداً . ألا ترى لو قال القائل : إذا جاءك العـالم وجب عليك احترامه وإكرامه وأن تستقبله ، سواء جاء وحده أو مع خادمه أو رفيقه ويجب المشايعة وحسن الموادعة ، فانك لا تفهم من هذا الـكلام إلا وجوب المشايعـة والموادعة للعالم ، لا له ولخادمه ورفيقه ، وإن تأخرا عنه . وهـذا لعمرى حسب قواعد العربية والذوق السليم جلىٌّ واضح ، لم يكن ليخفى عليك ، وأنت خِرِّيتُ العربية ، لولا الغفلة (والغفلات تعرض للأريب)

هذا من حيث لفظ الدليل وسياق الآيات الـكريمة

وهنالك ما هو أدق وأحق بالاعتبار من حيث الحـكمة الشرعية والفلسفة الاسلامية وشموخ مقامها ، وبعد نظرها فى أحكامها . وهو : أن من المعلوم أنه ما من حـلال أبغض الى الله سبحانه وتعالى من الطلاق ، ودين الاسلام كما تعـلمون ـ جمعىٌّ اجتماعىٌّ ـ لا يرغب فى أى نوع من أنواع الفرقة ، سيما فى العائلة والأسرة ، وعلى الأخص فى الزيجة ، بعد ما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى . فالشارع بحكمته العاليـة يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة ، فكثّر قيوده وشروطه ، على القاعدة المعروفة من أن الشىء إذا كثرت قيودُه ، عَزّ أو قلّ وجودُه ، فاعتـبر الشاهدين العدلين للضبط أولاً ، ولحصول الأناة والتأخير ثانياً ، وعَسَى إلى أن يحضر الشاهدان ، أو يحضر الزوجان أو أحدهما عندهما يحصل الندم ويعودان الى الألفة ، كما أشير اليه بقوله تعالى (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وهـذه حكمة عميقة فى اعتبار الشاهدين ، لا شك أنها ملحوظة للشارع الحـكيم ، مضافاً الى الفوائد الأخر

وهذا كله بعكس قضية الرجوع : فان الشارع يريد التعجيل به ، ولعل للتأخير آفات ، فلم يوجب فى الرجعة أى شرط من الشروط . وتصح عندنا — معشر الامامية — بكل مادل عليها من قول أو فعل أو اشارة ، ولا يشترط فيها صيغة خاصة ، كما يشترط فى الطلاق . كل ذلك تسهيلاً لوقوع هذا الأمر المحبوب للشارع الرحيم بعباده ، والرغبة الأكيدة فى ألفتهم وعدم تفرقهم . وكيف لا يكفى فى الرجعة حتى الاشارة ولمسها ووضع يده عليها بقصد الرجوع ، وهى — أى المطلقة الرجعية — عندنا ، معشر الامامية ، لا تزال زوجةً إلى أن تخرج من العدة ، ولذا ترثه ويرثها ، وتغسله ويغسلها ، وتجب عليه نفقتها ، ولا يجوز أن يتزوج بأختها وبالخامسة ، الى غير ذلك من أحكام الزوجية

فهل فى هذا كله مقنع لك فى صحة ما ذهبت اليه الامامية من عدم وجوب الاشهاد فى الرجعة بخلاف الطلاق ؟! فان استصوبته حمدنا الله وشكرناك ، وإلا فأنا مستعد للنظر فى ملاحظاتك وتلقيها بكل ارتياح ، وما الغرض إلا إصابة الحقيقة ، واتباع الحق أينما كان ، ونبذ التقليد الأجوف ، والعصبيـة العمياء ، أعاذنا الله وإياك منها ، وسدد خطواتنا عن الخطأ والخطيئات ، ان شاء الله ، ونسأله تعالى أن يوفقكم لأمثال هذه الآثار الخالدة ، والأثريات اللامعة ، والمآثر الناصعة ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ، ولـكم فى الختام أسنى تحية وسلام من

محمد الحسين آل كاشف الغطاء

ملاحظة : ومن جملة المسائل التى أجدتَ فيها البحث والنظر : مسئلة بطلان طلاق الحائض ، وقد غربلتَ حديث ابن عمر بغربال الدقيق ، وهذه الفتوى أيضاً مما اتفقت عليها الامامية ، وهى بطلان طلاق الحائض إلا فى موارد استثنائية معدودة .

***

هذا هو نص كتاب الأستاذ شيخ الشريعة ، لم أحذف منه شيئاً ، إلاّ كلمة خاصة لا علاقة لها بالموضوع ، وإنما هى عن تفضله باهداء بعض كتبه إلىّ . وسأحاول أن أبين وجهة نظرى ، وأناقش أستاذى فيما رآه واختاره ، بما يصل اليه جهدى فى عدد قادم ، إن شاء الله .

أحمد محمد شاكر

القاضى الشرعى

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه: الكلام خيالى ولا أصل له، كما مللت أن أقول وأؤكد فى كل مرة)

— ٤ —

غضبت علينا ذات الثوب الأرجوانى ... وما أعرف لى ذنباً جنيته إلا النظر، وما أحسبها تريد أن تحرم هذا علينا أو تكرهه منا. وأين المرأة التى يسوءها أن ينظر الرجال اليها ويعجبوا بها ويفتتنوا بحسنها؟ أو يسرها أن ينصرفوا عنها ولا يبالوها ولا يعنيهم أبقيت بينهم أو أمامهم، أم اختفت عن عيونهم؟ إن إتباعَ النظارةِ النظرةَ ثناءٌ صامت. والثناء قوت المرأة — وخمرها أيضاً — وقد ترى نساء يسوءهن النظر اليهن لسبب غير راجع إلى وحى الطبيعة فى نفوسهن، فيرتبكن ويضطربن، وتضيق الدنيا فى وجوههن ويشق عليهن ذلك حتى ليكبر فى وهمهن أنهن جنينه على أنفسهن وأثرن فضول الرجال. ولكن حتى هؤلاء لا يكرهن الثناء، بل تشرق له وجوههن، وتنشرح صدورهن، إلا إذا جاوزت الاطراء إلى ما هو خليق بسبب نشأتهن أن يزعجهن. وقد كنت مرة أتعلم الفرنسية وأتلقى دروساً فيها على فتاة أمها روسية وأبوها نمسوى، فاستغربت بعد بضعة أيام أنها تلقانى متجهمة! وبدا لى أنها تستثقل الدرس والتلميذ، فشكوت إلى صديق وقلت له: إن معلمتى لا تكف عن النفخ، وأنها طول الدرس تتأفف، وإنى أريد أن أبحث عن معلمة أخرى، فلست أطيق هذا الضجر الذى لا تنفك تواجهنى به. فقال: «لا تفعل». قلت: «ولكنى لا أستطيع الصبر على هذه الحال». قال: «لك العذر، ولكن ضاحكها وعابثها ... اثن على حسنها ... غازلها برفق، أى من غير أن تخرج عن حدود الأدب». فوعدته أن أجرب ذلك. وقد كان. أقبلت عليها فأقبلت علىّ، وصارت تهش لى وتبش، وأصبحت تلميذها الأثير. وكان لى زميل يتلقى عليها دروساً فى وقت آخر، وكان مثلى قبل أن يرشدنى صديق، أى أنه كان معها كأنها معلم بلحية لا معلمة مدلّة بجمالها وشبابها، فكان إذا جاء تعبس وتقول: فلينتظر! فأقول لها: «بل أخرج أنا لئلا يغضب فيضيع عليك درسه»، فتقول: «دعه يغضب ... إنه يغلى ويزهق روحى». وكان اسمه «عثمان أفندى» فصرنا — هى وصديقى الذى علمنى وأنا — نطلق اسم «عثمان أفندى» على كل من نراه بليدا جامدا فى حضرة النساء

وأعود إلى ذات الثوب الأرجوانى فأقول إنها كانت راضية عنى. وآية رضاها أنها ظلت أياماً لا تبدو لى إلا فى ثوب أرجوانى. وكنت لا أراها إلا خفيفة مرحة، واذا بها — فجأة — تخرج إلى الشرفة فى صباح فلا تكاد ترانى حتى تنثنى راجعة، فأعجب وأتساءل: «ما لها؟ ...» ولا أجد جواباً لسؤالى، فأهز كتفى وأقول: «سنرى»، ولكنى لا أرى بعد ذلك إلا الاعراض والنفور وطول الاحتجاب، فلا يسعنى إلا أن أعرض أنا أيضاً، وأن أظهر قلة المبالاة؛ فلا أفتح النافذة ولا أطل منها إذا كانت مفتوحة، ولا أنظر اليها إذا طلعت، فان فى طبعى عنادا، وأنا مفطور عليه وعلى المجازفة، ولست أعرفنى اكترثت للعواقب حين يستفزنى شىء. وما أكثر ما أخسر بسبب ذلك. ولكنى أستطيع أن أكبح ثورة نفسى ولا أستطيع أن أصرفها عن الزهد. وما عجزت قط — إلا فى الندرة القليلة — عن ضبط عواطفى وصد نفسى عن الاندفاع، ولكنى أرانى عاجزاً عن علاج نفسى إذا انصرفت عن الشىء وحملها على الاقبال عليه مرة أخرى. وقد كانت أمى تقول إن قلبى أسود، وكانت تعنى بذلك أنى لا أنسى الاساءة؛ على أنى لا أنسى المعروف أيضاً ولا أجحده، فأنا كما يقول ابن الرومى: «للخير والشر بقاء عندى»، وقد صدق فانا من طينة الأرض، «والأرض مهما استُودعت تؤدى». وما أساء إلىّ أحد إلا نازعتنى نفسى أن أنتقم منه، ولكنى لا أزال أحاورها وأداورها حتى أقنعها بأن الدنيا تغيرت، وأن أخلاق البدو لا تصلح فى هذا العصر المتحضر، وأن الناس لا يقتل بعضهم بعضاً فى هذا الزمان من أجل تمرة أو من جراء كلمة يسبق بها اللسان، حتى تسكن وتكتفى بالانصراف

وجلست أحاسب نفسي وأسائلها عن ذات الثوب الأرجواني ما خطبها ؟ . ولِمَ تبدى لي هذا النفور ؟ . أتراها تتكلفه ؟ . ألعل أهلها قد أغلظوا لها وضيقوا عليها فرأت أن تخفف عن نفسها وتعفيها من ثقل تدخلهم بالاحتجاب ؟ . ألا يجوز أن يكونوا قد كرهوا مني طول النظر اليها فكلموها في ذلك فلم يسعها إلا أن تكف عن الظهور ؟ . جائز ! ! ولكن من الجائز أن أكون قد صنعت شيئاً أغضبها . . ومن الحزم على كل حال أن أعرض أنا أيضاً الى حين ، حتى تسكن الثورة التي لعلها ثارت في بيتها وبين أهلها . . ولكن من الانصاف أيضاً أن أحاسب نفسي قليلاً . . فتعال هنا . . اخل بنفسك واجتهد أن تتذكر . .

فتذكرت . . . ذلك أني كنت يوماً في حجرتي فزارني صديق : وكان الجو حاراً جداً ففتحت له النوافذ جميعاً ، فقال لي بعد برهة : « أنظر . . » فسألته « ماذا ؟ » قال « هذه النافذة . . ألا ترى الفتاة التي تبدو منها ؟ » قلت : « إنك بعيد النظر . . وأنا أعترف أني لا أرى فتاة وإنما أرى ذراعاً » قال : « هذا ما أعني . . لا يبدو منها الآن إلا ذراعها ولكنها كانت منذ لحظة تطل علينا وتنظر إلينا » . قلت : « جائز . . كل شيء جائز . . صحيح إن العمارة التي نحن فيها سبع طبقات . . أو عشر . . لا أدري . . وفي كل طبقة شقق كثيرة . . ولكل شقة نوافذ وشرفات لم أعدها . . وقد يكون في بعض هذه النوافذ والشرفات التي لا أراها رجال يطلون منها . . ولكن المعقول أن الفتاة التي لا أزال لا أرى منها غير ذراعها — تنظر إلينا نحن دون هذا الخلق الذي لعله في الشرفات والنوافذ ونحن لا ندري

قال : « لا تمزح . . إن نظرتها إلينا نحن . . وهل يخفى اتجاه النظر ؟ »

قلت : « مايدريني ويدريك ؟ . ألا يمكن أن تكون حولاء ؟؟ تعرف كيف ينظر الأحول ؟! تكون عينه عليك ولكنه لا يراك بل يرى الذي الى اليمين أو الى اليسار . . أليس هذا جائزاً ؟ »

قال : حولاء ؟ ؟ كلا ! ! من قال هذا ؟ ؟ كلام فارغ ! ! إن عينيها جميلتان جداً »

قلت : « معذرة ! إني — كما تعلم — لم أر سوى ذراعها . . وعهدي بالعيون تكون في الوجوه لا في الذراع . . وأظن أن هذا النظام لا يزال هو المتبع في الخلق . . . على كل حال لم أر عينيها الجميلتين . . . »

قال : « والله إنها تنظر إلينا »

قلت : « صادق . . صادق . . . هذه أصابعها تنقر على حافة النافذة ولا شك أنها تعنينا الآن . . »

فقال : « دع المزاح بالله . . أنظر . . أنظر . . »

فنظرت . . وكففت عن المزح بلا حاجة الى زجر آخر . . وكانت الفتاة سمراء — لا بيضاء كذات الثوب الأرجواني — وكانت نظرتها إلينا — لا شك في ذلك — والرجل يدير رأسه أن يرى امرأة تُنْثره النظر ولا تكاد تحول عينيها عنه . فاذا كنت قد نهضت الى النافذة وأخرجت رأسي منها ورحت أحدق في هذه السمراء الجميلة التي تقبل علينا ولا تعرض عنا أو تتدلل علينا ، فأظن أن لي العذر . . ومن أين لي أن أعرف أن ذات الثوب الأرجواني كانت واقفة في هذه اللحظة وأنها كانت تراعيني وتراقبني ؟ ؟ ولو كنت أعرف ذلك لما صدني عن النظر ، فان حبي لذات الثوب الأرجواني ليس معناه أني عميت وأن عيني لا تستطيع أن ترى غيرها وأني فقدت القدرة على الاعجاب بالجمال في مظاهره المختلفة . ولكن المرأة أمرها غريب ، وإني لأذكر أني كنت راكبا مع فتاة من صديقاتي — وكنت أنا السائق كما لا أحتاج أن أقول — فرأيت فتاة جميلة واقفة على الرصيف فتمهلت لأنظر اليها ، وإذا بصديقتي تقرص أذني فصرخت فقالت : « هذا جزاؤك » فسألتها : « ماذا صنعت ؟ . . بأي شيء أستحق أن تقطعي لي أذني ؟ ؟ . وكيف أستطيع أن أسمع صوتك الحلو بعد ذلك » فقالت « ابق اسمع صوت التي كنت تنظر اليها الآن » قلت « مالها ؟ . . ألا تعجبك ؟ . ألا ترينها جميلة ؟ » فعادت الى القرص ، وعدت الى الصراخ ، حتى كدت أستنجد بالمارة . وقد ساء رأي صاحبتي في بعد ذلك ، وصارت كلما ركبت معي تشترط ألا أنظر لا يمينا ولا شمالا ، فأقول : « ولكن لماذا ؟ ما الضرر من النظر والتلفت ؟ ثم كيف أستطيع أن أثبت عيني في اتجاه واحد وقد خلق الله لي عينين تتحركان ولا تثبتان ؟ » فلا تجيب عن السؤال وإنما

تروح تهددنى وتتوعدنى فأخاف فان لها قرصا حاميا وأنا جلدى رقيق . ولكنى لا أفهم هذا التحكم من المرأة . وما أكثر ما قلت لاحداهن وقد أغضبها أن لى عيناً ترى وقلباً لا يسعه إلا أن يحس « يا ستى إن لك حديقة زهر . وفيها الفل والياسمين والورد الأحمر والأبيض والنرجس وما لا أدرى أيضاً . وأنتن يا نساء كالزهور .. فلماذا تريدين ألا تكون فى حديقتى إلا حواء واحدة ؟ »

فتقول : « بالله دع هذه الفلسفة السخيفة . . . ثم إنى أكره المكابدة »

فأؤكد لها أنى لاأقصد الى المكابدة ، وأقول : « نعم إن حواء واحدة مصيبة . . . وثق أن غلطة أبينا آدم هى أن جنته لم يكن فيها إلا هذه الحواء المفردة . . ولو كان فيها سواها . . عشر مثلا أو عشرون . . لما خرج من الجنة »

فتثور بى وتذهب وتعدو ورائى فأضع ذيلى بين أسنانى وألوذ بالفرار »

وما أشك فى أن ذات الثوب الأرجوانى أسخطها علىّ نظرى الى السمراء . وما تعنينى السمراء لو علمت . ولكنها المرأة لاتعرف إلا نفسها ولا ترضى عما تسميه « العين الزائغة » وهى تشعر بالمنافسة من كل امرأة مثلها ، ولا تستطيع أن تفسر النظر الى امرأة غيرها إلا بأنه تفضيل لهذه الأخرى عليها ولو كانت واثقة من حب بعلها أو رجلها . كنت مرة أتنزه فى إحدى الحدائق مع صديقة فقالت « هل نركب زورقاً ؟ » فاستحسنت هذا الرأى وانحدرنا الى الماء واستأجرنا قارباً ، وقبل أن نمضى به تناولت ذراعى وهمست فى أذنى : « لا تتحرك . . . إنى لا أكاد أصدق »

فرفعت عينى اليها فألفيتها ناظرة الى الحديقة التى انحدرنا عنها الى الماء . وكان الهواء ساكنا والمنظر الذى أمامنا كأنه مرسوم ، وكان لفرط جماله يذكرنى بأعذب ما قرأت من الأغانى . ثم أشارت بيد أحلى من أناشيد سليمان بن داود وقالت : « ليتنى أستطيع أن آخذها !! . » وكأنما قرأت فى وجهى استغراب هذا الكلام فقالت « إنها أحلى لعبة رأيتها فى حياتى ! »

فقلت مستفسراً « لعبة ؟ ؟ هل قلت لعبة ؟ ؟ أين هى ؟ »

فصاحت بى وهى تشير بأناملها المغرية « هذا . . هـذا . . هذا المنظر . . ألا يروقك ؟ »

فأدركت مرادها وإن كنت قد بقيت أستغرب عبارتها ، وقلت « لا . ليس هذا لعبة . . وإنما هو أسطورة . . »

فهزت رأسها كالموافقة ثم وضعت راحتها على كتفى وقالت « إنى سعيدة لأنى رأيت هذا »

قلت : « هو أسعد منك .. وما أكثر ما رأى هذا البستان من نساء ولكنه احتاج أن ينتظر الى اليوم حتى تروده حواء لها دل الفتاة وقلب الطفل »

قالت : « لا أظن . . » ثم رفعت وجهها الى وقالت : « انتظر .. لا تتحرك .. إنى أنظر الى نفسى فى عينيك »

فقلت — وقد أعجبنى ذلك : « حسن .. والآن .. لاتتحرك أنت . . فانى أتأمل قوس هذه الشفة . . . »

فذهبت الى آخر الزورق وأرسلت لى مع الريح قبلة

وقالت وهى تجلس هناك : « إن الذى يعجبنى منك هو هذا . . أنك لا تأخذنى على غرة . . الأكثر فى الرجال يعدون المرأة صيداً أو قنصاً . . أما أنت فتشجعنى على استعمال حريتى وعلى الشعور بأن لى استقلالاً وإرادة يجب أن يحسب حسابهما . . وكأنى بك يسرك أن تدع غيرك يحيا حياته على هواه هو ، أكثر مما يسرك أن تفوز من دنياك بمتع حياتك .. والآن ألا نمضى؟؟»

فقلت وأنا أضرب الماء بالمجداف : « إن فيما قلته عنى بعض الغلط .. فأنا أحب أن أصحح لك هذا .. وأنا أعترف أنى لست وحشاً . . إذا كان هذا ما تعنين . . ولكن نظريات أفلاطون لا تروقنى .. نعم يسرنى أن أرى كل انسان يحيا حياته كما يروقه — ولم لا ؟ — ولكن من أبرز نقط الضعف فى نفسى أنى أحب أن أحيا أنا أيضاً كما أشتهى » .

فدنت منى وأراحت أناملها على كتفى ، وأسندت وجهها لى صدرى وقالت وهى تضحك : « إنك عبيط .. ألست كذلك؟ وهذا هو الذى يحببك الى .. »

قلت : « يا ملعونة .. » وأحطتها بذراعى — « ارفعى فمك فانى أريد أن ... أسوى ربطتى فى مرآة عينيك ... »

وفى هذه اللحظة الحافلة بالاحتمالات خطرت فى دائرة نظرى

فتاة كان لا يسمنى إلا أن أراها . وليس لى فى هذا حيلة ولا كان منى عن عمد . ولكنها صارت أمام ناظرى ، فأنا لا بد أن أبصرها . وأحست صاحبتى أن عينى تحولت — كما كان لا بد أن يحدث — فحولت وجهها إلى حيث أنظر فأبصرت الفتاة ، فما كان منها إلا أن انتفضت قائمة ، وضربت المجداف من يدى ، وصاحت بى :

« ارجع بى حالاً ... الى البر ... قبل أن نبعد ... »

فذهلت وقلت : « ولكن لماذا ؟ ؟ . . . انا لم نبعد إلا خمسة أمتار ... »

قالت : « ليتنا بعدنا جداً ... ولكن لا ... كنت إذن أبقى مغشوشة ... مخدوعة ... ارجع ... أقول لك ارجع ... »

ولا حاجة الى رواية كل ما قالت وما أجبت به ، وليثق القارئ أن ريقى نشف كما لم ينشف قط ، فقد ثقل على هذا الطبع ، وأضجرتنى هذه الغيرة السخيفة التى لا محل لها على كل حال . فبعد أن تألفتها من نفرتها ذهبت ألقنها درساً لا أظن أنها ستنساه فى حياتها

ولكن أمثال هذه الدروس لا خير فيها ولا جدوى منها ؛ وما أظنها إلا كالكتابة على الماء

وقد تظهر المرأة مجاراتك ساعة تلقى الدرس ، لأنها ترى هذه المجاراة والتظاهر بالاقتناع والتوبة أحزم وأحسم للنزاع ، ولكنها لا تملك أن تغير طبيعتها ، فهى تظل على الرغم من دروسك كما هى

وقد أحنقنى من ذات الثوب الأرجوانى هذا النفور الذى لا داعى له ، فغضبت وثرت وانتفضت ، فرميت ورقات كانت بيدى ؛ وكنت جالسا بحيث أراها وترانى ، ويظهر أن ما رأته من خروجى عن طورى المألوف أدهشها جدا ، فقد رأيتها تهب وتطل ، فعل من يريد أن يتثبت ويتحقق . ومضيت أنا فى ثورتى ، فجعلت أروح وأجئ فى الغرفة ، وأقول لنفسى :

« لماذا تحرمُ قبل أن تعطى ؟ ؟ لماذا تبدأ بالمنع ولا تبدأ بالجود ؟ ؟ لماذا تؤثر السوء ولا تؤثر الخير ؟ ما هذه الطباع ؟ وماذا جنيت أنا ؟ إنى أرانى وهبتها الشعور بحسنها حين أحببتها ، ولو أنها لم يحببها أحدٌ لما وسعها أن تدرك أن لها حسناً يعشق وجمالاً يُحب ... فشعورها بحسنها هو هبةٌ وعطية منى ، لأنى أحببتها ... فكيف تتيه علىّ وتتدلل ، وتحاول أن تعذبنى جزاء لى على مجهودى الذى استفادت هى منه ولم أستفد أنا شيئاً ؟

أى يدٍ لها علىّ ؟ ؟ أنى أراها ؟ ؟ فكل من شاء أن ينظر إلى شرفتها ساعة تكون فيها يستطيع أن يراها مثلى فلا فضل لها فى ذلك يحسب علىّ .. ماذا غير ذلك ؟ لا شىء .. انتهينا إذن ! . . وما دامت لا تختصنى بشىء فلا حق لها فيما تتكلفه من حرمانى . . . لو كانت لم تتكلف لما عبأت ولما أحسست أن فى الأمر عمداً . . ولكنها عامدة ولست أنوى أن أشايعها على ظلمى . . إذن فأنا أنفر كما تنفر . . . وأحتجب كما تحتجب وليكن ما يكون ! »

وبعد أيام عدت أقول لنفسى : « اسمع . . إنها ليست مثلك . أنت تستطيع أن تخرج ، وتروح ، وتجىء ، وتتسلى وتتلهى ، ولكنها مسكينة لا تملك ما تملك من الحرية ومن وسائل التعزى . . وما يدريك أنها ليست مضطرة الى هذا الذى ثقل عليك وكرهته منها ؟؟ ولا تنس أنها رقيقة القلب . . أليست قد رأت أنك تشكو ألما فى ذراعك فحدثتك نفسك أن قد بدا لك منها عطف كان له وقع حسن فى نفسك

وقد توسطت وخير الأمور الوسط — كما يقولون — فأنا لا أتكلف الاحتجاب ولا أتعمد أو أتحرى أن أراها ، وأدع هذا وذاك للمصادفة ؛ وسأرى ما يكون . وأخوف ما أخافه أن أمل هذا التعب العقيم فيركبنى عفريت العناد وأجازف

ابراهيم عبد القادر المازنى

أثر الحرب الكبرى في بريطانيا[1]

للأستاذ رمزي ميور

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة منشستر سابقاً

ترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بماقادن الابتدائية

ليس في العالم كله مجتمع أو طائفة من المجتمعات أثرت الحرب في مصائرها كما أثرت في بريطانيا وما يتجمع حولها ويرتبط بها من الشعوب المؤتلفة المنتشرة في أنحاء العالم

ولقد كانت الحرب الكبرى التي دارت رحاها بين عامي ١٩١٤ و ١٩١٨ هي آخر عراك من أربعة يحدد كل منها فترة من فترات التاريخ اضطلعت بريطانيا فيها بدور حيوي هام هو انقاذ العالم من سيطرة دولة واحدة، أو نزعة للحضارة واحدة؛ وكان لكل عراك منها أثر بليغ في مركزها هي. فأما العراك الأول فهو حرب اسبانيا أيام الملكة اليصابات، وفيه قهرت ذلك الخصم العنيد، وصانت حرية البحار، وخرجت منه وهي أكبر الدول البحرية، والقادرة على أن تحيا حياتها الخاصة من غير خطر يتهددها، وأن تنشر تجارتها وتبسط سلطانها فيما وراء البحار

وأما في العراك الثاني فهي التي قادت الحلف الذي أذل كبرياء لويس الرابع عشر، ووثقت روابطه وخرجت منه وهي أعظم الأمم التجارية وأولى الأمم ذات الحكومات الديمقراطية، وفتح أمامها باب سيادة العالم الجديد فنالت تلك السيادة قبل أن ينقضي على الحرب نصف قرن. وفي العراك الثالث كانت هي العدو الوحيد الذي لم تقو الثورة الفرنسية ونابليون على هزيمته، وذلك بفضل قوتها البحرية، وخرجت من هذا العراك وهي من غير شك أقوى دول العالم وسيدة البحار بلا منازع، ومالكة الثروة التي أخرجتها وسائل الانتاج الآلية الحديثة، والمسيطرة على امبراطورية عظيمة تضم بين أطرافها القارات وأشباه القارات. وكانت كل حرب من هذه الحروب العالمية سبباً في ارتفاع شأن الشعوب البريطانية وزيادة قوتها. فماذا كان أثر الحرب الأخيرة فيها؟

كانت بريطانيا العظمى في خلال القرن التاسع عشر أقوى دول العالم أجمع، لا ينازعها في ذلك المركز منازع. وكان مرجع قوتها إلى عدة عوامل: أولها عزلتها البحرية التي أمنت بها أخطار الغزو الأجنبي أمناً لم يتمتع به غيرها من الدول الأوربية، ومكنها من أن تُنَمِّي نظم الحكم الذاتي الخاصة بها في أمن واطمئنان، وأن تغرس في نفوس أبنائها حب الهدوء وطاعة القوانين. وثاني هذه العوامل هو تفوقها البحري الذي لم يكن يسمو اليه غيرها من الدول؛ وبفضل هذا التفوق أمنت بريطانيا على نفسها أكثر مما تأمن على نفسها أمة أخرى في العالم: وعظم نفوذها في شواطئ البحار، وأضحت هي الممثلة للحضارة الأوربية لدى معظم الشعوب غير الأوربيـــة. وثالث هذه العوامل هو امبراطوريتها الواسعة الأرجاء التي تمتلكها بوسائل سهلة، والتي أخلصت لها شعوبها المحكومة، والتي اتخذتها بريطانيا سوقاً لمصنوعاتها، ومستودعاً للمواد الغفل لم تنل مثله غيرها من الأمم. ورابعها تفوقها في وسائل الانتاج الصناعي الحديثة ووجود مناجم غنية بالفحم سهل الاستخراج كان الى عهد قريب هو القوة الصناعية الوحيـــدة في العالم. والعامل الخامس هو ما انطوت عليه صدور أبنائها من حب المغامرة وما طبعوا عليه من قوة الابتكار الفردي. وسادسها هو قوتها المالية التي نشأت من انتشار عادة الادخار والاستثمار بين أبنائها، ومما أنشأته من نظام مصرفي عجيب؛ وقد أصبحت بفضل هذه القوة مركز العالم المالي والدولة الدائنة العظيمة التي مدت العالم بمعظم ما احتاجه من رءوس الأموال لاستثمار البلاد الجديدة، وبفضل وسائلها ومبتكراتها المالية يتبادل العالم تجارته الدولية. والعامل السابع في عظمة بريطانيا أنها هي وحدها السوق العظيمة الحرة والمستودع المركزي العام الذي تأتي اليه جميع غلات العالم كله

(١) من كتاب النتائج السياسية للحرب الكبرى صدر في سنة ١٩٣٠.

ولا يحول بينها وبينه حائل . وكان فى مقدورها أن تختط لنفسها هذه الخطة لأنها لا تخشى المنافسة ، ولأنها وهى المضطرة إلى أن تبيع بضائعها فى كل جزء من أجزاء العالم تعلم حق العلم أنها إذا لم تقو على منافسة الدول لها فى بلادها فلن تقوى على المنافسة فى خارجها . وآخر أسباب هذه العظمة ، وإن لم يكن أقلها أهمية ، هو نظام حكومتها الحر الذى أعجبت به ونسجت على منواله أمم العالم أجمع ، لأنه جمع فى نظرها بين الحرية والاستقرار وثبتت بالتجربة صلاحيته ، وخضع له جميع رعاياها مخلصين ، لأنه يكفل لهم حماية القانون ولا يقيد حريتهم فوق الحد الواجب

ولقد كانت السيادة البريطانية فى كل ناحية من هذه النواحى سيادة موقوتة لا يمكن أن تكون لها صفة الدوام ، لأن فى العالم أمما أخرى لا تقل عن بريطانيا فى مواهبها الطبيعية أو مواردها المادية ، وكانت ثمة عوامل عدة تعمل على تقويض دعائم هذه السيادة فى خلال الجيل السابق للحرب ؛ وكانت الحرب نفسها تنذر بزوال سيادة بريطانيا المضمحلة سيادة الزعامة والنفوذ واحلال سيادة ألمانيا سيادة النظام والقوة محلها . هذا الانقلاب على الأقل لم يقع ، ولكن شعباً واحداً لا يستطيع أن يكون له شيء يسمى سيادة فى هذا العالم الذى يسير فى طريق الحرية ، بل لا يحق لشعب أن يرغب فى هذه السيادة ، ولذلك أخذت سيادة بريطانيا القديمة تزول شيئاً فشيئاً بعد الحرب وبسبب الحرب ، وأصبح واجباً عليها أن تكيف نفسها لمركز جديد فى العالم ؛ ولا شك أنها تلقى فى سبيل هذا التكييف نصباً . ولنبحث أولاً فيما اعترى أسباب عظمتها من تطورات :

لم يعد مركز بريطانيا البحرى يضمن لها ما كانت تتمتع به من سلامة ؛ ذلك بأن التقدم السريع فى وسائل النقل الجوى يعرضها لخطر الغزو بشكل مرعب عرفته أثناء الحرب الكبرى ، ونقول بشكل مرعب ، لأن مدنها الواسعة المكتظة بالسكان يمكن تدميرها بين عشية وضحاها ، ولم تستكشف بعد وسيلة لاتقاء هذا الخطر الا منع الحروب بتاتاً . وليس هذا كل ما فى الأمر ، فان اعتمادها فى بقائها على ما يأتى اليها من الطعام من وراء البحار يعرضها إلى الخراب العاجل المفزع إذا هاجمت سفنها الغواصات ، وذلك خطر ليس فى الاستطاعة إتقاؤه إلا بوسائل غاية فى البطء والمشقة كما دلت الحرب . فان أهلها كادوا يموتون جوعاً بسبب الغواصات القليلة العدد التى استخدمتها ألمانيا فى الحرب . وإذا ما هاجمها فى المستقبل أسطول من الغواصات كالذى تمتلكه فرنسا مثلاً كان هذا الهجوم أكثر مفاجأة لها وأشد خطراً عليها ، لأن الجزيرة التى كانت من قبل معقلاً منيعاً لأهلها أصبحت الآن شركاً منصوباً لهم . وليس فى استطاعة بريطانيا أن تعتمد فى سلامتها على مواردها الخاصة كما كانت تعتمد عليها فى الأيام الماضية . فاذا أرادت أن تأمن على نفسها فان عليها أن تعوّل على ما يقوم به العالم المتمدين من عمل إجماعى لجعل الحرب مستحيلة الوقوع

ولقد انقضى الآن عهد سيادة بريطانيا البحرى انقضاء لا مرد له بعد أن دام ثلاثة قرون واضطرت بريطانيا فى معاهدة واشنجتن (سنة ١٩٢٢) أن تعترف « بمساواة » الولايات المتحدة لها وهى تعلم علم اليقين أنه إذا قام التنافس فى التسلح بينها وبين الولايات المتحدة تغلبت عليها الأخيرة بمواردها التى لا ينضب معينها . وليس هذا كل ما فى الأمر فان الحرب أظهرت أن الأحوال الحاضرة تجعل الاحتفاظ « بسيادة البحار » على الوجه الأكمل من أصعب الأمور . فلقد كان عدد السفائن الألمانية المغيرة التى انطلقت فى بداية الحرب أو استطاعت أن تفلت من الحصر فى أثنائها صغيراً لا يذكر ، ولو لم يكن ساحل ألمانيا غاية فى القصر سهل الرقابة لما كان عدد هذه المغيرات قليلاً إلى هذا الحد ، ولكنها على قلتها لم يقتنصها إلا مائة وأربعون طراداً . ذكر ذلك اللورد جليكو فى المؤتمر البحرى المُعجَّل الذى عقد فى عام ١٩٢٧ لكى يتذرع به للاحتفاظ لبريطانيا بسبعين طراداً فقط . أما إذا أرادت أن تضمن لنفسها سيادة البحار فى كل الأحوال فلا يكفيها سبعون طراداً بل لا بد لها من سبعمائة ، فليس فى استطاعتها إذن أن تعتمد على مواردها الخاصة لتضمن سلامة البحار ، تلك السلامة التى تقف عليها حياتها ، بل عليها أن تعتمد على تعاون هيئة عالمية منظمة . وقد يعز على بريطانيا بطبيعة الحال أن تقر بهذه النتيجة ، لكنها برغم ذلك نتيجة محتومة لا مناص منها . كانت بريطانيا أكثر الأمم اكتفاء بنفسها — فى هذا الميدان على الأقل — أما الآن فقد أصبح موقعها يحتم عليها أن

تكون أول داع الى اعتماد الدول بعضها على بعض اذا قدرت ما يعرضها اليه موقعها من الأخطار

أما الأمبراطورية فاذا نظرنا الى أجزائها الرئيسية رأينا أنها لم تبق « أمبراطورية » مهما توسعنا فى فهم هذا اللفظ ، ولم يبق لبريطانيا « إشراف » عليها ، بل أصبحت شركة مفككة الأجزاء من دول حرة تسعى كل منها إلى « الاكتفاء بنفسها » عن طريق الحواجز الجمركية ، ولم تبق أسواقها مفتحة الأبواب للبضائع البريطانية . وينطبق هذا الوصف على بلاد الهند التى كانت أعظم الأسواق لتصريف المنسوجات القطنية ، وهى أهم الصادرات البريطانية ؛ وكان تصميم الهند على الاستغناء عن هذه البضائع قدر استطاعتها من أكبر الأسباب التى أدت إلى كساد هذه الصناعة بعد الحرب . وكان ما اعترى الأمبراطورية البريطانية بعد الحرب من تطور وعدم وجود سياسة عامة منسجمة تحل محل ما كان لبريطانيا من إشراف قد نقص الآن إلى الحد الأدنى . كان ذلك كله من أهم المظاهر التى بدت على هذه الدولة بعد الحرب ولأهميتها سنفرد لها بحثاً خاصاً فيما بعد

كذلك لم يبق لبريطانيا ما كانت تتمتع به من التفوق فى وسائل الانتاج الصناعى بل أصبح يشاركها فى هذا التفوق على الأقل عدد من الأمم الأخرى ، وسبقتها الولايات المتحدة وألمانيا فى تطبيق العلم على الصناعة تطبيقاً حديثاً . وسبب ذلك أن رجال الأعمال فيها لا يزالون يحتقرون البحث العلمى ، وأن بريطانيا تأخرت عن غيرها من الأمم فى استخدام النظم الحديثة للانتاج الكبير وفى تنظيم الصناعة تنظيما يرمى الى الوصول الى أبعد حدود الاقتصاد والاتقان مجتمعين . وهى تقاسى الآن من جراء تأخرها هذا أوخم العواقب كما تقاسى عناد كثيرين من أصحاب الأعمال فيها وتمسكهم بالقديم الرث وتشددهم فى الاحتفاظ بكل ما كان صالحاً أيام آبائهم ، وتقاسي أيضاً عاقبة عناد نقابات عمالها الكاملة النظام والتى تخلق الصعاب إذا ما أريد تغيير الوسائل الصناعية وخشيت أن يصيب العمال من جراء ذلك التغيير عطل مؤقت ، وتتمسك أشد التمسك بالقيود والاجراءات التى كانت تسير عليها فى سنى الرخاء السابقة للحرب . كذلك لم يبق لبريطانيا ما كان لها من تفوق فى امتلاك مصادر القوى الصناعية لأن فحمها الآن يوجد على عمق أكبر من عمق الفحم الجديد الذى يستخرج من الولايات المتحدة وغيرها من البلاد ، وقد أبطأت فى استخدام أنجع وسائل الانتاج الكبير فى صناعة الفحم وفى اتباع الطرق الآلية لتقليل نفقات الانتاج . وزيادة على ذلك فان مصادر أخرى للقوة لا تملكها بريطانيا أخذت تحل محل الفحم فى كثير من الصناعات ، فمنها القوى المائية التى لا تستطيع بريطانيا أن تنافس فيها البلاد ذات المجارى الكثيرة المتدفقة من رؤوس الجبال ، ومنها النفط الذى لا تكاد تنتج أرضها منه شيئاً والذى لا بد لها أن تستورده وتنفق على استيراده أموالاً طائلة فى كل عام

ويلوح أيضاً أن ما كان يتصف به أهلها من نشاط وقوة مغامرة بدأ يضمحل وان كان هذا مما لا يستطاع اثباته بالاحصاءات . وسبب هذا الاضمحلال أن بريطانيا خاضت غمار الحرب معتمدة على نظام التطوع الاختيارى ؛ ومعنى ذلك أن خير أبنائها وأشدهم حماسة ذهبوا الى ميدان القتال أولاً وهلكوا زرافات . وقد يكون هذا هو السبب فيما نشاهده بعد الحرب من نقص مخيف فى رجالها المبرّزين الذين يتقدمون طائعين لتحمل التبعات ومواجهة الصعاب وهو أمر مشاهد فى كل ناحية من نواحى الحياة : فى السياسة وفى الأعمال الصناعية والتجارية وفى الفنون ، فكلها لم يظهر فيها بعد الحرب رجال أوتوا حظاً عظيما من الشهرة ، ولا يزال الأفذاذ النابهون من الانجليز ، رجال ما قبل الحرب . كذلك نرى فى طوائف كثيرة من الشعوب البريطانية ميلاً متزايداً للاتكال على الحكومة فى اصلاح عيوبها ؛ وقد يكون منشأ هذا الميل لدى عامة الشعب ما وضعته الحكومة فى السنين الأخيرة من نظم محكمة لتخفيف الضنك أو ما سلكته من الطرق فى تنظيم هذه النظم ؛ لكننا نشاهد هذه العادة نفسها : عادة الاتكال على الحكومة بين مديرى الصناعة الذين يتطلعون الى الحكومة لتقيهم شر المنافسة الأجنبية مع أن آباءهم كانوا يرون واجباً عليهم أن يقفوا أمام منافسيهم وجهاً لوجه لا يميزون منهم فى شىء (شأنهم فى ذلك شأن سائر أفراد الأمة) فاذا لم يقووا على المنافسة سقطوا صرعى فى الميدان . ويلاحظ البعض أن أخلاق البريطانيين بعد الحرب طرأ عليها تغير خطير ، فقد أخذ يسرى فى نفوسهم روح الجمود والاستسلام والرغبة فى الفرار من الصعاب والتخلص

منها بالتجائهم الى الألعاب وغيرها من ضروب الراحة والتسلية . قد تكون هذه الميول عارضة لا تلبث أن تزول ، ولكنها مادامت موجودة خطر ينذر بشر مستطير . وإذا صدق هذا الظن وكانت هذه الميول موجودة حقاً فربما كانت رد فعل ظبيعي للمجهود الذي قاساه الشعب في الحرب وزوال ما كان يغشى بصائره من الغرور

كذلك كانت الحرب سببا فيما اعترى قوة بريطانيا المالية بعدها من ضعف مخيف . ذلك أن البلاد حملت من الديون والضرائب مالم تتحمله أمة أخرى ، لأنها أمدت حلفاءها بجانب عظيم من نفقات الحرب ؛ ولم يكد يردُّ اليها هؤلاء الحلفاء شيئاً من هـذه الأموال ، ولن يردوا اليها شيئاً في المستقبل إلا ما استدانته باسم هؤلاء الحلفاء من الولايات المتحدة الأمريكية .

وبينما تعمل الدول الأخرى لتخفيف العبء عن كاهل أهلها تزيد بريطانيا أعباءها بالتدريج ؛ وتجيز كلتا الهيئتين السياسيتين القويتين في بريطانيا زيادة الضرائب وتراها أمراً مرغوباً فيه لذاته ،فأحداهما تريد زيادة الضرائب المقررة ، والأخرى ترغب في زيادة الضرائب غير المقررة من غير نظر الى ما سوف تُنْفَق فيه الأموال . وهذه الأعباء الثقيلة تشل قدرة بريطانيا على الانتاج من وجوه عدة ، وتضعف ملكة الادخار والاستثمار لدى كثير من طبقات الشعب ضعفاً خطيرا . ويزيد من هذا الخطر تمسك الشعب بمستوى معيشته الراقي دون أن يراعي ضعف الوسائل التي تمكنه من ذلك ، وهذا أمر مشاهد لدى جميع الطبقات . ولهذه الأسباب لم تعد بريطانيا كما كانت من قبل الأمة العظيمة الدائنة لأمم العالم والتي تقدم ما يلزم من المال لاستثمار موارده الطبيعية ، وأخذت الولايات المتحدة تحل محلها ، وتستحوذ على ما لهذا المركز من قوة ونفوذ . كذلك لم يستطع نظامها المصرفي برغم ما اتصف به من ثبات أن يجاري مطالب العهد الذي أعقب الحرب وما فيه من صعاب ، فلقد أصبح المسيطرَ على هذا النظام عدد قليل من المؤسسات المالية الضخمة أفقدته كثيرا مما كان له من مرونة ، وطالما استخدمت هذه المؤسسات ما لها من سلطان على وسائل الائتمان المالي في إضعاف المشروعات المالية واعاقتها بدل أن تعينها وتشجعها

(يتبع) محمد بدران

أعلام الإسلام

٣ — سَعِيد بن المُسَيِّب

للأستاذ ناجي الطنطاوي

تزويج ابنته

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد بن المسيب جليس يقال له عبد الله بن أبي وداعة ، فأبطأ عنه أياماً ، فسأل عنه فقيل له : إن سعيد بن المسيب سأل عنك ، فأتاه وسلم عليه ، ثم جلس . فقال له سعيد : أين كانت غيبتك يا أبا محمد ؟ فقال : إن أهلي كانت مريضة فمرضتها ثم ماتت فدفنتها . فقال يا عبد الله ، أفلا أعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتها فنشهد جنازتها ؟ ثم عزّاه عنها ودعا له ولها ، ثم قال : يا عبد الله ، تزوج ولا تلق الله وأنت عزب (١) . فقال : يرحمك الله ! ومن يزوجني ؟ فوالله ما أملك غير أربعة دراهم (٢) . فقال : سبحان الله ! أو ليس في أربعة دراهم ما يستعف به الرجل المسلم ؟ يا عبد الله ! أنا أزوجك ابنتي إن رضيت . قال عبد الله : فسكت استحياء منه واعظاماً لمكانه . فقال مالك سكت ؟ ألملك سخطت ما عرضنا عليك ؟ قال : يرحمك الله ! وأين المذهب عنك ؟ فوالله إني لأعلم أنك لو شئت زوجتها بأربعة آلاف وأربعة آلاف (٣) ، قال : قم يا عبد الله فادع لي نفرا من الأنصار ، فقمت فدعوت له حلقة من بعض حلق الأنصار ، فأشهدهم على النكاح بأربعة دراهم ، ثم انقلبنا ، فلما صلينا العشاء الآخرة وصرت الى منزلي (٤) ،

(١) وروى أنه قال : هل استحدثت امرأة

(٢) وفي رواية . وما أملك إلا درهمين ، أو قال : ثلاثة

(٣) كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد ابن عبد الملك حين ولاه ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة صوت في يوم بارد ؛ وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف

(٤) وفي رواية : فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ؛ وجعلت أتفكر ممن آخذ ، وممن أستدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلي واسترحت ، وكنت وحدي صائما ، فقدمت عشائي أفطر ، وكان خبزا وزيتاً فاذا بآت يقرع الباب ...

إذا برجل يقرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : سعيد . فوالله خطر ببالى كل سعيد بالمدينة غير سعيد بن المسيب ؛ وذلك أنه ما رؤى قط خارجاً من داره إلا إلى جنازة أو الى المسجد. فقلت مَن سعيد ؟ قال : سعيد بن المسيب . فارتعدت فرائصى ، وقلت : لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلنى ، فخرجت اليه أجر رجلى وفتحت الباب فاذا أنا بشابة ملتفة بساج ، ودواب عليها مذابح ؛ وخادم بيضاء ؛ فسلم على[1] ثم قال لى : ياعبدالله هذه زوجتك . فقلت مستحيياً منه : يرحمك الله ! كنت أحب أن يتأخر ذلك أياماً . فقال لى : لمه ؟ أولست أخبرتنى أن عندك أربعة دراهم ؟ قلت : هو كما ذكرت ، ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك . قال : إنها إذن عليك لغير ميمونة ، وما كان الله ليسألنى عن عزبتك الليلة وعندى لك أهل . هذه زوجتك ، وهذا متاعكم ، وهذه خادم تخدمكم معها ألف درهم نفقة لكم ، فخذها يا عبد الله أمانة لك ، فوالله انك لتأخذها صوامة قوامة ، عارفة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتق الله فيها ، ولا يمنعك مكانها منى إن رأيت منها ما تكره أن تحسن أدبها . ثم سلمها إلى ومضى[2] . قال : فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله تعالى ، ولا أعرف بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أخوف لله عز وجل منها . لقد كانت المسألة المعضلة تعيى الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علماً

وروى[3] أنها لما تزوجت ، وبكر زوجها خارجاً سألته : أين يذهب ؟ فقال لها الى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد !

(١) وفى رواية : فقلت يا أبا محمد ، لو أرسلت إلى فآتيك . قال : لأنت أحق أن تؤتى . قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك ...

(٢) وفى رواية ؛ فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة التى فيها الزيت والخبز فوضعتها فى ظل السراج لكى لا تراه ، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءونى فقالوا : ماشأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة. فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ؟ قلت نعم ! وها هى ذى فى الدار . قال : فنزلوا هم اليها وبلغ أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، قال : فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بها فاذا هى من أجمل الناس ، وإذا هى أحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج

(٣) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء السابع ، صفحة ٤٨٥

تقشفه وعبادته

قال ميمون بن مهران : بلغنى أن سعيد بن المسيب عمّر أربعين سنة ، لم يأت المسجد فيجد أهله قد استقبلوه خارجين منه قد قضوا صلاتهم

وقال ابن حرملة : اشتكى سعيد عينه ، فقالوا له : لوخرجت ياأبا محمد إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة[1] لوجدت لذلك خفة ، قال : كيف أصنع بشهود العتمة والصبح ؟ !

وقال عمران : قال سعيد : ما أظلنى بيت بالمدينة بعد منزلى ، إلا أنى آتى ابنة لى فأسلم عليها أحياناً ، (قال) : وكان سعيد يكثر الاختلاف إلى السوق

وقال محمد بن سعيد : كان سعيد بن المسيب أيام الحرة[2] فى المسجد لم يبايع ولم يبرح ، وكان يصلى معهم الجمعة ، ويخرج إلى العيد ، وكان الناس يقتتلون وينتهبون وهو فى المسجد لا يبرح الى الليل . قال : فكنت إذا حانت الصلاة أسمع أذاناً يخرج من قبل القبر حتى أمن الناس ، وما رأيت خيراً من الجماعة[3]

وقال ابن حرملة : قلت لبرد مولى ابن المسيب : ما صلاة ابن المسيب ؟ فأما صلاته فقد عرفناها . فقال : والله ما أدرى ، إنه ليصلى صلاة كثيرة ، إلا أنه يقرأ بـ «ص والقرآن ذى الذكر»

وقال عطاء : إن سعيد بن المسيب كان إذا دخل المسجد يوم الجمعة لم يتكلم كلاماً حتى يفرغ من صلاته ، وينصرف الأمام ، ثم يصلى ركعات ، ثم يقبل على جلسائه ويُسأل

وقال عاصم بن العباس : كان سعيد بن المسيب يذكّر ويخوف

وقال : سمعت سعيد بن المسيب يقرأ القرآن بالليل على راحلته فيكثر

(١) لم يبق اليوم من بساتين العقيق وخضرته إلا نخلة واحدة على بئر عروة

(٢) هى أيام يزيد بن معاوية لما انتهب المدينة ، وندب عسكره من أهل الشام لقتال أهلها من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى فى ذى الحجة سنة ٦٣

(٣) ومثله قول سعيد : لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى المسجد أحد من خلق الله غيرى ، وإن أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، وما يأتى وقت الصلاة إلا سمعت أذاناً فى القبر ، ثم تقدمت فأقمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى

وقال : سمعت سعيد بن المسيب يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم

وقال عمران : كان فى رمضان يؤتى بالأشربة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فليس أحد يطمع أن يأتى سعيد بن المسيب بشراب فيشربه ، فان أتى من منزله بشراب شربه ، وان لم يؤت من منزله بشىء لم يشرب شيئا حتى ينصرف

وقال عبد الله بن يزيد الهذلى : إنه كان يصوم الدهر ، ويفطر أيام التشريق بالمدينة . وكان يقول لنفسه إذا دخل الليل ، قومى يا مأوى كل شر ، والله لأدعنّك ترجفى رجف البعير ، فكان يصبح وقدماه منتفختان ، فيقول لنفسه : بذا أمرت ولذا خلقت

وكان يقول : ما فاتتنى فريضة فى جماعة منذ أربعين سنة ، وما أذّن المؤذّن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد . وصلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة . وكان يقول : ما فاتتنى تكبيرة الاحرام منذ خمسين سنة

وقال عبد الرحمن بن حرملة : سمعت سعيداً يقول : حججت أربعين حجة

وقال سعيد ما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق

وكان يقول وقد أتت عليه أربع وثمانون سنة : ما شىء أخوف عندى من النساء . فقالوا يا أبا محمد ، إن مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء قال : هو ما أقول لكم

هيبته

وقال عبد الرحمن بن حرملة : ما كان انسان يجترئ على سعيد ابن المسيب يسأله عن شىء حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير

وقد ذكرنا أن الحرس ، عند دخول الوليد المسجد ، أخرجوا جميع من فى المسجد وبقى سعيد لم يجترئ أحد منهم أن يخرجه

سماع الشعر

قال : ابن أبى ربيعة أشعر فى الغزل ، وابن قيس أكثر أفانين شعر

وقال عاصم : كان يحب أن يسمع الشعر ولا ينشده

وقال الأصمعى : قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا قوم نسّاك يعيبون انشاد الشعر قال : نسكوا نسكا أعجمياً

وروى صاحب الأغانى عن ابراهيم بن محمد بن عباس المطلبى أنه قال :

مرّ سعيد بن المسيب فى بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحربى يتغنى فى دار العاص بن وائل :

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت ... به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ، ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات

وعلت بنان المسك وحفا مرجلاً ... على مثل بدر لاح فى الظلمات

وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات

قال : فكانو يروون أن هذا الشعر لسعيد بن المسيب (١)

(البقية فى العدد القادم) ناجى الطنطاوى

---

(١) وقال صاحب روضة المحبين : لما مر عبيد الله جامع بن مرخية الكلابى أحد شعراء الحجاز بسعيد بن المسيب قال سعيد : هذا من أكذب العرب ، قيل كيف يا أبا محمد ؟ قال أليس الذى يقول :

سألت سعيد بن المسيب مفتى الـ ... مدينة هل فى حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب : إنما ... تلام على ما تستطيع من الأمر

كذب والله : ما سألنى عن شىء من هذا قط ، ولا أفتيته

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفّاق

— ٤ —

وصل الفائت

اكتشف متشنيكوف فى بعض الأحياء المائية الصغيرة خلايا تدور فى أجسامها فاذا هو حقن فى هذه الأحياء صبغة تجمعت تلك الخلايا فأكلت الصبغة . وإذا شك الحيوان بشوكة نهضت تلك الخلايا اليها تدفع السوء الداخل . وأدخل فى أجسام تلك الأحياء خمائر قاتلة ، فنهضت اليها الخلايا فالتهمتها . عندئذ فسر الحصانة بأنها حرب بين خلايا طليقة فى الأجسام كمثل كرات الدم البيضاء وبين المكروبات الداخلة اليها . وأسمى هذه الخلايا بلعوسات

اتجه متشنيكوف بعد ذلك يبحث فى هذه الحروب هل هى عينها التى تقع فى الضفادع والأرانب . وفى عام ١٨٨٦ وردت أخبار بستور من وراء الحدود تنقل حديث شفائه الروسيين الستة عشر من عضة الكلب المسعور بعد ضياع الرجاء فيهم [١] ، فاهتز أهل أودسا الأخيار لهذه الأخبار ، ونهضوا ، ونهض معهم أهل الريف الذى حولهم حتى حدود المقاطعة ، نهضوا جميعاً يشكرون الله على ما حبا ، ويهتفون لبستور على ما أتى ، وجمعوا كيساً ضخماً من الروبلات [٢] لاقامة معمل يُنشأ توّا فى أودسّا . وعيّنوا متشنيكوف مديراً علمياً لهذا المعهد الجديد . ولمَ لا ؟ أليس هو الرجل الذى درس فى كل جامعات أوربا ؟ أليس هو العالم العلاّمة الذى خطب أطباء أودسا فأفاض عليهم من منابع علمه تلك الافاضة الكبرى ؟ أليس هو الذى شرح لهم ما خفى من أمر فَجُوسات [٣] الدم التى تأكل المكروب أكلا لمّا ؟ ونسوا حيناً أنه يهودىّ !

وكنت إذا تسمّعت الى الناس وجدتهم يقولون : « من بدرينا ! فلعل فى معهدنا الجديد يستطيع أستاذنا متشنيكوف أن يدرّب هذه الفجوسات الصغيرة على التهام كل أنواع المكروبات ! » .

وقَبِلَ متشنيكوف هذا المنصب الجديد ، ولكنه احتاط فقال لرجال السلطة قول الحذِر البصير : « أنا رجل اكبر همّه فى النظريّات ، وأبحاثى كثيرة لا يكاد يتسع لها وقتى ، وإذن فمن الواجب أن يتدرّب غيرى على صناعة الألقحة vaccines وأن يقوم بالجزء العمليّ من واجبات المعمل »

ولم يكن فى أودّسا فى ذلك الوقت رجل واحد يعرف عن صيادة المكروب شيئا . لذلك أرسلوا صديق متشنيكوف الدكتور جماليَه Gamaléia بسرعة الى باريس الى معهد بستور . فلما حل فيه صَحِب بستورَ وصحب رو فى عملهما وتعلّم منهما الشىء الكثير ، ولكن هذا الكثير لم يؤذَن له ببلوغ الكفاية ، فان أهل أودسّا قل صبرهم ، وزاد قلقهم ، واشتدت رغبتهم فى الخلاص من الأمراض فصاحوا يطلبون الألقحة ، فاضطُرت السلطة تحت هذا الضغط العام الى استدعاء الدكتور جماليه ، ولم يكن طال مقامه فى باريس . فلما عاد بدأ يصنع لِقاحا لداء الجمرة تخليصاً لشياه الريف ، ولقاحا لداء الكَلَب دفعا له عن أهل المدينة . عندئذ صاح متشنيكوف فى الناس : « والآن كل شىء لابد سائر كما نهوى » وهو يجهل كل الجهل تلك الألاعيب الثقيلة التى تلعبها المكروبات أحيانا على ممارسيها . ثم اعتكف الى نظرياته يبحث فى الأرانب والكلاب والقردة ليرى أفى استطاعة فجوساتها أن تبتلع مكروب السل والحمرة والحمّى الراجعة . وانطلقت النشرات العلمية تخرج من معمله فى تلاحق سريع ، وأخذ بُحّاث أوروبا يتأثرون بكشوفات ذلك الرجل العبقرى ببلاد الروس السفلى . ولكنه لم يلبث أن بدت له المصاعب فى نظريته ، فالكلاب والأرانب والقردة ليست شفّافة كبراغيث الماء

ثم أخذ الحال يسوء فى المعمل ، فأخذ الخصام يدب بين رجاله وعلى رأسهم الدكتور جماليّه ، فاختلطت الألقحة وتلوّثت ، وانكبت على الأرض من أنابيبها . وجاء أطباء البلد يتسلّلون وفى قلوبهم بالطبع حفيظة وغيرة من هذا الملاج الجديد ، وأخذوا يسألون الأسئلة المحرجة ليُشيعوا شاعة السوء فى الناس : « من هذا الأستاذ متشنيكوف ؟ ومن أين جاءته الأستاذية وهو

(١) أنظر ما سبق من ترجمة بستور

(٢) الروبلة هى الوحدة الفضية الروسية ، وهى من الفضة وتساوى نحوا من نصف ريال مصرى

(٣) كراته البيضاء

لا يحمل شهادة طبيب ؟ إنه ليس إلا رجل طبيعى Naturalist ، وصيّاد جراثيم ، فمن أين جاءته معرفة الأمراض والوقاية منها ؟ »

وصاح الناس : « أين العلاج المزعوم ؟ ! » وصاح المزارعون الذين نزلوا بأيديهم عميقاً فى أكياسهم طَلَبَ النقود الكثيرة يبذلونها عن طَواعِية : « أين الحصانة الموعودة ؟ » . واضطر متشنيكوف الى الخروج من محرابه ساعة ، والبروز من ضباب نظريته وفجوساته حينا ، ليصرف الناس عن شكواهم ، وكانت الفئران عاثت فى الحقول فأكلت المحاصيل ، فبذر فى تلك الحقول بشلّة كوليرا الدجاج لتقضى على الفئران . ولكن تقريرا خطيرا كاذبا كُتِب من نار ظهر فى الجريدة اليومية يتهم متشنيكوف أنه انما بذر الموت والوبال فى الحقول ، لأن كوليرا الدجاج تستطيع أن تتحول الى كوليرا الانسان ... !

فضجر متشنيكوف وشكا فى خفوت : « ما شأنى بهذا الصخب ! أنا رجل باحث وأبحاثى متكاثرة علىّ ، وأنا رجل ذو نظرية ، ونظريتى فى حاجة الى كثير من الهدوء لتشتد وتنمو .... » وسأل أهلَ السلطة إجازة فأعطوه إياها ، فحزم حقيبته وذهب الى مؤتمر فينّا ليخبر كل من يجد هناك بأمر فجوساته ، وليجد لنفسه ركنا هادئا يستقر فيه ويعمل بعيدا عن الضوضاء ، فلا يكون مضطرا لاثبات صحة نظرياته لسلطات قليلة الصبر تطلب خلق العلاجات ، ولا يكون مدفوعا لارواء شهوة الفلاحين وتعويضهم عن كل قرش دفعوه بتعجّل الأدوية وابتسار الحصانات . ومن فينا ذهب الى باريس ، وفى باريس انتظره نجاح باهر لم ينتظره . فهناك تعرّف الى بستور العظيم ، فما إن تم التعارف حتى انفجر يحدثه عن فجوسته ونظريته فيها ، ووَصَف له المعارك التى تقع بين الفجوسات والمكروبات وصفا بديعا سماويّا جذّابا ، وتأمل شيخ المكروب صاحبنَا بعين مُتعبَة طميسة أخذت تبرق للذى تسمع حينا بعد حين ، فلما انتهى الحديث ، قال بستور : « أنا فى صفّك يا أستاذ متشنيكوف ، ذلك لأنه كثيرا ما استوقفتنى معارك كالتى تصف كنت ألحظها بين شتى الأحياء المجهرية الدنيئة ، وإنى لأحسبك سائرا على هدى فى الطريق الذى أنت فيه »

لم يكن بين المعارك التى ذكرها بستور وبين تلك التى يصفها ميشنيكوف صلة أصلاً ، ومع هذا فقد امتلأ قلب متشنيكوف مما سمع سروراً ، وامتلأت نفسه زهواً . وكيف لا ، وهذا أبو المكروبات الشيخ الأجل استمع له وفهمه ثم آمن به ... وكان أبو ألجا قد مات وترك لهم دخلاً متواضعاً . وتراءى لمتشنيكوف أن باريس مهد طيب لنظرية الفجوسات إذا هى آزرها معهد ذو جاه كمعهد بستور ، فسأل بستور : « سيدى ، أود لو يكون لى مكان فى معهدكم ، وأنا بهذا انما أبغى العمل فى معملكم على أية صورة وبغير أجر » . وأدرك بستور أنه لابد من استبقاء حماسة الجماهير لصيادة المكروب ، وأن رجل الشارع لا يفهم من العلم غير تلك الأحداث المهيجة والدرامات المثيرة ، فأجاب متشنيكوف عن سؤاله : « أنا لا أقبلك تعمل فى معملى فحسب ، بل سيكون لك فيه معمل كامل موقوف عليك » . وسافر متشنيكوف الى أودسا ، وفى طريقه التقى بكوخ فجبهه كوخ واستغلظ له ، وأخذ يفكر ويخاير نفسه بين قبول العمل فى المعهد الفرنسى والتخلص من قوم لا يفتأون يصرخون يستعجلون النتائج ، وبين البقاء فى المعمل الروسى والابقاء على المرتب الطيب الذى يتقاضاه منه . . . وقرر بعد التردد أن يبقى حيث هو من أودسا وواصل عمله فيها ، ولكن حدث بعد قليل حَدَثٌ لم يترك لنفسه خياراً . ذلك أن الفلاحين زادت شكواهم من القطعان التى تموت بالجمرة وعلت أصواتهم فى طلب الألقحة ، فأمر متشنيكوف الدكتور جماليه أن يحقن الشياه بلقاح الجمرة جملة واحدة . وذهب متشنيكوف وزوجته ألجا الى بيتهم الريفىّ الصيفىّ ، وذات يوم جاءتهم فيه الرسالة التلغرافية الآتية من الدكتور جماليه :

قَتَل لقاح الجمرة آلافاً من الشياه

فلم تمض أشهر قليلة حتى كان متشنيكوف استقر فى معهد بستور الجديد فى باريس ، والى جانبه ألجا — تلك الزوجة الطيبة — التى كانت لا تقصّر فى عمل أى شىء لزوجها لأنه عبقرى ولأنه عطوف عليها — قامت الى جانبه تمسك له الحيوان وتغسل له الزجاجات ، وهى لو تُركت لنفسها لفضّلت تصوير الزيت أو نحاتة الحجر — فنَّين جميلين أقرب لمتعتها وأملأ لشهوتها . ومن تلك الساعة مشى الزوجان ، يداً فى يد ، فى طريق النصر من غلبة الى غلبة ، وقد انتثرت على جانبيه من أخطائهما ورود زادت طريقهما روعة وجمالاً

(يتبع) أحمد زكى

مقاييس الشعر

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

ذكر ابن سلام أنه شهد خلفاً وقد قيل له من أشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهى هذا الى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس ، وأخطب الناس ، وأجمل الناس

وإذا أردنا أن نبحث عن السبب فى تشعب الخلاف فى ذلك إلى هذا الحد لم نجده يرجع إلا الى أن علماء الأدب لم يهتدوا فى ذلك الى مقياس عام للشعر يمكن به وضع كل شاعر فى مرتبته التى يستحقها بموجب هذا القياس العام ، ويرجع إليه علماء الأدب فتتفق عليه كلمتهم فى ترتيب طبقات الشعراء ، أو يقرب الخلاف بينهم فى هذا ولا يتشعب ذلك التشعب . وإن عدم اهتدائهم إلى ذلك المقياس العام للشعر ليجعل خلافهم فى ترتيب طبقات الشعراء على استفحاله بينهم مما يجدر بالباحث عدم الاعتداد به ، لأنه يكاد يكون خلافاً لفظياً لا حقيقياً ، إذ لكل فريق وجهة نظر فيمن يقدمونه من الشعراء خلاف وجهة نظر الآخرين كما يقدم أهل البصرة امرأ القيس لسبقه الى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء ، من استيقاف الصحب وبكاء الأطلال ، وتشبيه النساء بالظباء وغير ذلك . وكما يقدم أهل الحجاز زهيراً والنابغة ، لأن زهيراً كان أحكم الشعراء شعراً ، وأبعدهم من السخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وأنه كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، وأنه مع بلوغه ما بلغ فى المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه . ولأن النابغة كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، وكأن شعره منثور لا تكلف فيه . وكما يقدم أهل الكوفة الأعشى لأنه كان أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم فى الشعر فنوناً ، وأكثرهم طويلة جيدة

وقد قسم علماء الأدب الشعراء تقسيما يمكن أن يعد من المقاييس العامة للشعر ، ولكنه لا يفيدنا فى ترتيب طبقات الشعراء الفائدة المطلوبة ، فقالوا إن الشعراء أربعة أقسام : شاعر فحل وهو الذى يجيد الشعر ولا يروى لغيره ؛ وشاعر خِنْذِيذ وهو الذى يجيد الشعر ويروى الجيد من شعر غيره ، فهو شاعر وعالم بالشعر . وقد يقال الفحل لما يشمل هذين القسمين فيكون أعم من الخنذيذ ؛ وشاعر وسط وهو الذى لا يبلغ رتبة الفحول ولا ينحط شعره الى الردىء ؛ وشُعْرُورٌ أو شوَيْعِر وهو الردىء

وقد وضعنا للشعر مقياساً عاماً يتفاضل فيه الشعر باعتبار نبل أغراضه وشرف مقاصده ، قبل أن يتفاضل بجمال ألفاظه ومعانيه . ولقد وازنا بهذا المقياس بين امرىء القيس وعدى بن زيد فى كتابنا (زعامة الشعر الجاهلى) ، وبين أبى العتاهية وبشار وأبى نواس فيما كتبناه فى مجلة (الرسالة) الغراء عن أبى العتاهية ، فخرجنا من هذا بتفضيل عدى بن زيد على امرىء القيس ، وتفضيل أبى العتاهية على بشار وأبى نواس ، وهو أمر لا يمكن أن يخالفنا فيه أحد يوافقنا على صحة هذا المقياس الذى وضعناه للموازنة بين الشعراء ؛ وإنها لميزة كبيرة له يظهر فضلها إذا نظرنا فيما روى فى ذلك عن خلفٍ فيما سبق

ولكن جمهرة أدبائنا لا يوافقوننا على هذا القياس الجديد ، وينكرونه علينا أشد الانكار . وهم معذورون فى هذا الانكار أشد العذر ، لأن دراسة الأدب قد سارت من نشأتها الى الآن على خلاف رأينا فى هذا القياس ، حتى إن الأصمعى رحمه الله وسامحه كان يقول : إن الشعر لا يقوى إلا فى باب الشر ، فاذا دخل فى الخير لان . وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحُمر والخيل والحروب والافتخار وغير ذلك

وقد ذكر قدامة بن جعفر فى كتابه (نقد الشعر) رأيا فى ذلك أخف من رأى الأصمعى ، فهو يرى أن الذى يلزم الشاعر فقط أنه إذا شَعَرَ فى أى معنى كان من الرفعة والضِّعة ، والرَّفث والنزاهة ، والبَذَخ والقناعة ، والمدح والذم وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة التى يمليها على الشاعر وجدانه ، ويوحى اليه شيطانه ، أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك الى الغاية المطلوبة

وقد حملنى ذلك النفور من رأيى فى قياس الشعر بأغراضه ومقاصده قبل ألفاظه ومعانيه على تقييد كل ما أجده يؤيده فى مطالعاتى ، فوصلت فى ذلك الى طائفة صالحة من أقوال الحكماء والشعراء ، ولم أقصد من مقالى هذا إلا تقييدها على صفحات مجلة (الرسالة) الغراء

قال الأحوص :

وما الشعر إلا حكمةٌ من مؤلِّفٍ ... لمنطق حقٍّ أو لمنطق باطل

وقال فكتور هوجو : الشاعر مصلح عظيم ، ونبى كريم ، أرسله الله لقومه هادياً الى مواطن الحرية والجمال والحب

وقال حسان بن ثابت :

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقالُ إذا أنشدتَهُ صَدَقا
وإنما الشعر لُبُّ المرء يعرضه ... على البريَّة إن كيْساً وان حُمقا

وقال معاوية بن أبى سفيان لعبد الرحمن بن الحكم : إنك قد لهجت بالشعر ، فإياك والتشبيب بالنساء فتعرّ شريفة ، والهجاءَ فتهجن كريماً ، أو تثير لئيما . وإياك والمدح فهو كسب الأنذال ، ولكن افخر بمآثر قومك ، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك ، وتؤدب به غيرك ، وإن لم تجد من المدح بُدّاً فكن كالملك المرادى حين مدح فجمع فى المدح بين نفسه وبين الممدوح فقال :

أحللتُ رَحْلى فى بنى ثُعَل ... إن الكريم للكريم مَحَلّ (؟)

وقال النابغة الشيبانى :

وإنى حاكمٌ فى الشعر حكماً ... إذا ذُكرَ القوافى والنَّشيدُ
فخير الشعر أكرمه رجالاً ... وشرُّ الشعر ما نطق العبيد

وقال أيضاً :

من الشعراء أكفاءٌ فحولٌ ... وفرّأون ان نطقوا أساءُوا
فهل شعران شِعْرٌ غنًى وحكمٌ ... وشعرٌ لا نصيح به سواءُ

وقال أبو نواس :

الشعر ديوانُ العربْ ... أبداً وعنوانُ الأدبْ
لم أعْدُ فيه مفاخرى ... ومديح آبائى النُّجُبْ
ومقطَّعاتٍ رُبّما ... حلّيت منهنّ الكتب
لا فى المديح ولا الهجا ... ء ولا المجونِ ولا اللعبْ

ودخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له : بلغنى أنك لا تحسن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه خراب الأخبية ، قال : وما يمنعك من ذلك ؟ قال إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلم ، وحلما يمنعنا من أن نظلم . قال لكلماتك أحسن من شعرك . فما العز الذى يمنعك أن تظلم ؟ قال الأدب المستطرف ، والطبع التالد . قال لقد أصبحت حكيما ، قال وما يمنعنى من ذلك وأنا نجى أمير المؤمنين ؟

وقال أبو العلاء المعرى :

مُلَّ المُقامُ فكم أعاشر أمةً ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
فِرَقاً شعرتُ بأنها لا تقتنى ... أدباً وأن شرارها شعراؤها

وقال الفارابى : إن أكثر شعر العرب فى النهم والكريه ، وذلك أن النوع الذى يسمونه النسيب إنما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغى أن يتجنبه الولدان ، ويؤدبوا من أشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم ، فانه ليس تحث العرب فى أشعارها على شىء من الفضائل سوى هاتين الفضيلتين ، وإنما تتكلم فيهما على طريق الفخر ، لأن أكثر شعرهم من شعر المطابقة الذى يصفون به الجمادات كثيراً والحيوان والنبات . وأما اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعراً إلا وهو موجه نحو الفضيلة والكف عن الرذيلة ، وما يفيد أدباً من الآداب ، أو معرفة من المعارف

وقال محمود سامى البارودى :

الشعر زَيْنُ المرء ما لم يكن ... وسيلة للمدح والذّامِ
قد طالما عَزَّ به معشرٌ ... ورُبّما أزْرَى بأقوام
فاجمله فيما شئت من حكمة ... أو عظةٍ أو حسب نام
واهْتِفْ به من قبل تسريحه ... فالسهم منسوب الى الرامى

ولا شك أن من ينظر فى هذه الأقوال والأشعار لهؤلاء الحكماء والشعراء يجدها تتفق تمام الاتفاق مع ذلك القياس الذى وضعناه للشعر ليصلح به أمره ، ويحسن فى الناس أثره ؟

عبد المتعال الصعيدى

نُجح وإخفاق

للأستاذ فخرى أبو السعود

نَلْ ما تُريدُ من الأيام مقتدرا   وطُفْ بموكبها العَجّاج منتصرا
وسِرْ حياتَكَ مِن نصرٍ إلى ظفرٍ   وقَضٍّ فى غزْوِ غاياتِ العُلى العُمُرا
وازْدَدْ بنفسك إيمانا إذا وَطَرٌ   شآك لا تَلْحَ إنسانا ولا قَدَرا
واعلمْ بأنك ترْقى اللجَّ معتليا   إذا هوَى بك بعضُ اللّجّ منحدرا
كُنْ — إذْ علمتَ طباعَ الدهر كيف جرَتْ
وقد علمتَ طباع الخَلْقِ — مُعْتَبِرا
كم لُمْتُ نفسى على ما فاتَ من أرَبٍ
ولم أَلُمْ قدَراً يوما ولا بَشَرا
لو كنتُ أبصر بالمسعى خَلصتُ إلى
مُناىَ ما أُبْتُ مِن مَسعاىَ مُنكسرا
الدهرُ نِعمَ المُرَبّى بَثّ حكمَتَهُ   فى كلّ ما نابَ من أحداثِهِ وعرا
أ كلما لقّن الإنسانَ تجربةً   أنحى عليه بذَمٍّ؟ لو درَى شَكرا
ما لائم الدهر إلا كالصبى إذا   مَشى إليه المُربى بالعصا جَأرا
من علّمته رزايا الدهر موعظةً   فانه قد جَنى أضعافَ ما خَسِرا
إنى — وقد صنتُ نفسى أن يؤدّبَها   سوايَ يُلقى إليها الوعظَ والنُّذُرا —
أُمسى عليها رقيباً ساهراً يقظاً   عمري وأضحِي حسيباً مغلظا عسرا
النُّجح يعرفنى إن نلت غايته   لم أُلفَ لا قانعا جهلاً ولا أشِرا
والرُّزء يعهدنى: إن جل موقعُه   أَلوذُ بالعزم والايمان مصطبرا
صحبتُ دهرى وصاحبتُ الأنام على
عِلاّتِهِمْ ولكم أغضى مَنِ اختبرا
كم أولعتْ بِيَ شرّيرا طَوِيَّتُهُ   وحدثته بفعل السوءِ فابتدَرا
كان المُسىء فلم أحفل إساءته   وقد غفرتُ ولم يحلُم ولا غفرا
مَن ليس تقصر دون الأفق هِمّته   ولا يُطارح إلا الأنجُمَ السَّمَرا
فكم يبيتُ عن الأضغانِ فى شغل   وكم يمر بأهل الضغن محتقرا

فخرى أبو السعود

هرم خوفو

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يا موجــة للدهر لم تُهْزَمِ   تعلو عُلُوَّ الجبــل الأعظم
وما رأينا قبلها موجة   تعلو فلا تحدر للمحطم
ما الناس والآثار من بَعْدِهِم   إلا كموج إن علا يُهْزَمِ
موج لبحر ماله ساحل   إلا الردى فى لحده المظلم
كم عند شط الموت شِلْوِ رَدى   يقــذفه الدهر إلى ضيغم
هل أنت شِلْوٌ لزمان مضى   رفاته الآثار لم تُرْدَمِ
لم يبق من عمران من قد مضوا   إلا بقايا الجلد والأعْظُمِ
كأنما يُذْخَرُ من مجدهم   ما يذْخَر النمل من المَطعم
كيف نُرَجّى الدهر ذا عفــة   إن ذاق طعم اللحم لم يقرم (١)
لا يسمع الدهرَ سوى مُنْصِتٍ   بالروح إن يُصغِ له يبكم
همهمة يطلقها عارم   إن يمضغ المودى به يبغم
هل خاف هذا الدهر صرف الردى   فشاد صَرْحاً منك لم يُثْلَمِ
لا يجرؤ الموت على بيتــه   فى هرم كالجبــل الأدهم
أم شادك العقــل لكيما يرى   من فوقك الأقدار لم تهجم
بعيدة لم تَبْدُ أشــخاصها   تهفو لنا فى يومها الأيومِ
كى يؤذِنَ الناس بإقبالها   من قبــل أن تفجأ بالمَقْدَمِ
إن أرزم الرعد على شاهق   فقوقك الأيام كالمرزم
أو كللت هامَتَه ديمة   وطفاء مثــل المِجْسَدِ المسهم
فوقك أرواح عصور خلت   كديمة سوداء لم تحسمِ
هدت يدُ الدهر مشيدَ البنى   وهو إذا أمّكَ كالأجذم
كم أنزل الدهر شآبيبه   على جبين منك لم يهرم
كالمزن فوق الزهر يحيا به   زهر الرُّبى من غيثه المُرْهِمِ
كأنما روح زمان مضى   معشش فوقك كالقشعم
يا معبداً يُعْبَد فيــه الحجا   إلى الحجا فى صنعه ينتمى
أجلُّ ما تعبد فيه النهى   سليلها فى صنعه المحكم
يا عَلَمَ الدنيا الذى قد غدا   عجيبة الغائر والمُتْهِمِ

(١) فى هذا البيت والأبيات التى بعــده تشبيه للدهر بحيوان يضربه أكله الناس

علت بك الأرض كمن قد علا ... برأسه الكبر فلم يهضم
رفعت رأساً منك ماطاله ... رأس البناء الشامخ الأقوم
كأنما كل البنى سُجَّدٌ ... من هيبة للملك الأعظم
يا ملكا ما انحلَّ سلطانه ... قد هُدِمَ الماضى ولم يُهدَم
كم دولة قد ضاع سلطانها ... ودولة الأهرام لم تهرم
يا غِيَرَ الأيام فى كرِّها ... من أبيض نأمن أو أسحم
تباعدى إن شئت أو فاهجمى ... على شبيه البطل المُعْلَمِ
هيهات لم يبدُ له مَقْتَلٌ ... قد أخطأ الرامى فأشوى الرمى
كم خال فيك الناس سرا طوا ... ه الدهر لم يُكشَفْ ولم يُعلم
خالوا الأولى شادوك قد أودعوا ... فيك رموز المطلب الأكرم
ما أودعوا إلا كنوزاً غدت ... نهبة كف الصائل المجرم
وكل مالم يَبْدُ كُنهُهُ له ... يخالُ كنز الحق والمغنم
والمرء يبغى الحق فى خدره ... ولو بدا فى أعين الأنجم
ورمه خبأها كاهنٌ ... لفاتكِ الآراء والمخذم
رمة رب رائع عزمه ... قد أُخرجَت من بعدُ للمرجم
جلال روح منه ذى همة ... مجسم فى صنعه المحكم
لا تحسبنَّ الناس لم يُغنهم ... غير منال البُرْد والمطعم
فالنفس تبغى أن ترى كُنْهَهَا ... مُجسَّماً فى صنعها الأعظم
لم يُصلح الناسَ لِذِى أمرهم ... غيرُ شفيع السيف والدرهم
أظلمهم من ساغ طعم الأذى ... ليس الذى يَظلمُ بالأظلَمِ
كل ضعيف خيره علة ... من ذا الذى صح فلم يعرم

آية الصبح

بقلم الشاعر عثمان حلمى

غرّدَ العصفورُ للصبح فهيا ... يا حبيبى فتّح الصبح فهيا
آية الصبح تجلّتْ ، قمْ بنا ... قبل أن تطوى بضوء الشمس طيّا
إن نور الله فى بهجته ... دلّنا أن له سراً خفيا
وكأن الكون فيه ملك ... يتغنى نغماً حلواً شجيا
سكبَ الحسن على جبهته ... ماءه فانتعش العالمُ رِيّا
كلُّ شىء ضاحكٌ مبتهجٌ ... بعثَ الصبحُ مواتَ الكونِ حيا
فهنا الريحانُ فى أوراقه ... ناشراً من روحه روحاً زكيا
وهنا النرجسُ فى جلبابه ... لابساً من حسنه ثوباً بهيا
وهنا الوردُ على أغصانه ... خجلاً من حسنه الزاهى حَيِيا
وهنا الطيرُ تُغنِّى لغةً ... فهم الزهر لها معنى خفيا
كلما غرّدَ منها طائرٌ ... خلتُه كان إلى الطير نبيا
وهنا الأشجارُ فى خضرتها ... لبست ثوباً من الحسن زهيا
خلَعَ الصيفُ عليها بُرْدَه ... وحباها ثمراً حلواً جنيا
رَضِى الله على الدنيا فما ... تبصرُ العينُ من الدنيا دَنيا
كفُّ جبريل عليها نثرتْ ... من رُبَى جنته حسناً نديا
من حياة الخلد أو من حسنه ... ما يعيد الميْت فى الأنفس حيا
أو مشى يوسفُ فيها طرباً ... وحبا الجوَّ بها عطراً زكيا
وحبا الأنظارَ من طلعته ... ما يُعيد الحب فى النفس فتيا
فإذا ما عبثَ الحبُّ بها ... جعلته مثلاً منه عليا

يا حبيبى سِرْ بنا فى روضةٍ ... نرومنها الطرف إن كان صديا
والذى صوّر فى الكونَ لنا ... بيدىْ إحسانه حسناً سويا
والذى نمّقَ من قدرته ... كلَّ ما ينطقُ بالحق جليا
والذى قلبى ونفسى صُنْعه ... كنتُ منه أولياً أبديا
والذى سواك من نور الضحى ... بعد أن لم تك فى ماضيك شيَّا
والذى أرسلنى منكَ إلى ... كلِّ من يشعرُ للحب نبيا
والذى أكسب نفسى نغماً ... باعثاً للحسن فى الناس دويا
والذى أبدعَ فى صوتك ما ... يملأُ السمع به خمراً شهيا
غنِّنى شعرى وقل فى طربٍ ... غرّدَ العصفورُ للصبح فهيا !
جلَّ من أنشاكَ فى صورته ... مثلاً فى حسنكَ الزاهى عليا
وحبانى الحب حتى ما أرى ... غيرَ حى كان حبا عبقريا
جلَّ من أرسل منّى شاعراً ... يتغنى فيك بالشعر شجيا
أنت فى شعرى جميلٌ خالدٌ ... بعد ما يطوى حياتى الدهر طيا
آه لو تفهمه لم تنسنى ... أبدَ الدهر ولو كنت نَسِيا
هاك رتّله ، ففى ترتيله ... ما يعيد الباكىَ النفس رضيا
فهو مثلُ الصبح ، فى آيته ... ما يعيد الأمل الحلو قويا
ها هو الصبحُ ! فلولا حسنه ... كانت الدنيا جحيما أبديا

القصص

قصة مصرية

الأعمى ...

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

بقلم محمود البدوى

بقى الأعمى فى المسجد بعد أن فرغ المصلون من صلاة العشاء بساعة ، ثم مشى الى جانب المنبر فتناول عصاه وأم الباب ، ولما بلغ عتبته سمع صوت الدلو فى البئر ، فنصب قامته وأرهف سمعه .. لقد جاءت جميلة على عادتها ، ولكنها متأخرة قليلاً هذه الليلة . واستمر واقفاً وسمعه إلى الماء المتقاطر من الدلو كدفعات المطر غب سحاب ورعد ؛ ثم انقطع صوت الماء ، فأدرك أنها ملأت الجرة ، فدفع الباب وخرج ، ومضى تحت جدار المسجد خطوات ... ثم توقف عن سيره وأخذ يفكر . . . ثم ارتد إلى حيث كان ، حاثاً الخطى كأنما يسوقه سائق ... وعطف على البئر وقلبه شديد الخفقان

« جميلة ... »

« نعم ... »

« أملأت الجرة ؟ »

« أجل ! »

« وذاهبة إلى البيت ؟ »

« أجل ! »

وكانت الجرة على رأسها ، وقد تهيأت للسير ، فاستدارت ووقفت ... ...

ومد عنقه وقال :

« سأروح معك من غرب البلد ... لأن كلاب الشيخ عبد الكريم عادت من العزبة ... وهى تقطع علىّ الطريق »

« هيا ... ... »

ومشيا صامتين والليل ساكن والقرية نائمة ، والظلام مخيم ؛ حتى أحس بأنفاسه خلصت ، فأدرك أنهما خرجا إلى الخلاء . وبعد خطوات سمع حفيف الريح فى عيدان الذرة ، فأيقن أنهما قربا من الحقول ، وسأل وقلبه يرجف :

« أوصلنا بستان الشيخ حسين ؟ »

« قربنا ... ... »

ولم يكن ألف هذه الطريق ، وإن يكن يعرف أن هناك قناة صغيرة تمتد بين البستان وحقل الذرة ، وعليهما أن يعبراها لينحدرا منها إلى جنوب القرية ، ثم إلى حيهما . وكان منذ أن غادر البئر واقعاً تحت تأثير خواطر عاصفة ، اشتعل لها رأسه ، وجاش صدره ؛ فكان يتخلف عنها قليلاً ويجعلها تتقدمه خطوات . فهذه هى المرة الأولى التى ينفرد فيها مع امرأة فى ظلام الليل وسكونه ، على أن تخلفه عنها لم يخفف من حاله ، بل على العكس من ذلك ، كان يفسح المجال لوضوح رغباته

سطَّر الرحمنُ فى صفحته ... نورَه نوراً سماوياً سنيا
وأجاد الله فى صنعته ... لم يدع فى خلقه للنقص شيا
ليتَ شعرى ما عسى جنته ... تلك حيث النفس لا تلقى رديا
طهُرتْ من نقصنا وابتهجتْ ... من سناهُ كاملاً فيها جليا
ليتنى رضوانُها أو ليتنى ... ملَكٌ فيها يظلُّ الدهر حيا
وأرى شخصك فيها ملكاً ... نتناجى الحب فى الخلد سويا
نتناجى حُبّنا عن كثب ... ويكون الحبُّ حباً أبديا
ونرى الرحمنَ فيها أو نرى ... من يرى الرحمنَ فى الخلد هنيا
فهناك المثلُ الأعلى لمن ... عَرف الأدنى من الدنيا قويا
قم إذن نسعَ إلى الروض سويا ... ياحبيبى ، فتّح الصبح فهيا !
لا يطيب العيش لى منفرداً ... أو أرى وحدى جلال الحسن شيا
لو ملكت الخلد وحدى لم أكن ... لا عن النفس ولا عنه رضيا
نزعت نفسى إلى مؤنسها ... أو حبيب أجتلى منه المحيا

(الاسكندرية) عثمان حلمى

وتركزها وأخذها السبيل عليه ، فمضى وراءها والاضطراب يعصف بقلبه وصدره وكيانه ، حتى وصلا القناة فدفع لها عصاه ، ونزل وراءها فى الماء ، وغاصت أقدامهما فى الوحل ، وخرج ينفض رجليه فى العشب الممتد على حافة الحقل . وأنزلت هى جرتها وانحنت على الماء تغسل رجليها ، ثم انتصبت تصلح ثوبها ، وهو واقف خلفها يفتح رئتيه وصدره لهواء المساء العليل ، ويحاول أن ينحى عن رأسه الخواطر العاصفة التى ألهبت أليافه وهيمنت على كيانه

وواجهته وقالت بصوت ناعم :

« ناولنى ... ... »

فمد يده إلى الجرة ... فلمست يدها ، فكأنما لامسه لهب كاو ، فوقف ويده تلاصق يدها

ثم أمسك بيدها ورفعها عن الجرة ، حتى استطاع أن يقبض عليها بقوة ، فمدت وجهها مشدوهة وقالت وصوتها يرتعش :

« ناولنى .. ... »

فرفع يده إلى ذراعها وضغط ، وقد أحس بألياف لحمه تلتهب

« ن ... ناولنى ! ... »

فأبقى يده ضاغطة على ذراعها ، وهو واقف يتردد

« ما الذى تريده منى ؟ »

فلم يقل شيئاً . ثم مال عليها وضمها إلى صدره ، وضغط على جسمها فتراخى ، وحملها على ذراعيه بسرعة ، ودخل بها حقل الذرة ... ...

***

مشت جميلة إلى بيتها خائرة القوى ، مرضوضة الجسم ، ذاهبة اللب ، وقد اسود فى نظرها الوجود واحلولكت الدنيا ... مشت ذاهلة ساهمة لا تحس بشىء مما حولها ، ولا تعرف إلى أين هى ذاهبة ... على أن رجليها كانتا تقودانها ، بحكم العادة ، إلى بيتها . مشت تحملق فى الظلام ، وهى والهة مرتاعة ترى بعد كل خطوة شبحاً ، وتتصور عند كل قدم حفرة ... ... لقد فعلتها . . مع من ؟ مع سيد الأعمى ... لقد ساقتها قوة أزلية الى الهاوية ! لقد حملها المقدور الحتم الى الوحل ... لقد جرفها التيار فغاصت فى الوحل الى ساقيها

إننا نسير فى الطريق مسوقين بقوة أعلى منا وأقوى . قوة جارفة لا نستطيع ردها ، ولا نقوى على دفعها ، تسوقنا فى الظلام الى المصير الحتم ... لقد غدت جميلة ، فتاة الريف العفيفة الطاهرة ، المرأة الدنسة القذرة التى غاصت بقدميها فى الوحل ... سيظل الوحل عالقاً بها دائماً ، وان غسلت رجليها صباح كل يوم ومساءه ، سيظل الوحل عالقاً بها أبداً

ستذكر دائماً أن قوة خفية ساقتها ، بمحض ارادتها ، الى الوحل ، قوة أعلى منها لا تستطيع فهمها ولا تحاول فهمها ولا تعليلها . هذه القوة الخفية الأزلية تعمل دائماً من وراء الحجب ، تعمل أبداً من وراء الغيب ، وتسوقنا الى المصير المحتوم

ستذكر جميلة ، الفتاة الريفية الجميلة المزهوة ، أن قوة خفية ساقتها الى البئر ، لتقودها الى الأعمى ، ولتجرفها الى الحقل

لا لذة ولا متعة ، ولا احساس بشىء من هذا كله ، ولكنها استسلمت ورضيت ، لأنه حكم عليها بأن تستسلم وترضى

لا احساس بنشوة ، ولا شعور بمتعة ، وانما مر كل شىء كالعاصفة الهوجاء وهى تلف كل شىء لفاً

لما فتحت عينيها على الدنيا الرحيبة الباسمة ، من قبل ، كان كل شىء قد تغير ؛ كل شىء قد تغضن واربد وعلته غشاوات ، ولفه السواد فى جلبابه ، وطوته العاصفة الرعناء فى طياتها ؛ كل شىء قد انمحى من باصرتها ومات وذهب مع العاصفة ، وبقيت ظلمات يأخذ بعضها برقاب بعض .... وعليها أن تسير فى جوف الظلام وتمضى

ستطلع شمس الصباح الجميلة على القرية الوادعة ، وستقابل القرويات ، وستتحدث وتبتسم وتضحك ، ولكن بأى وجه ؟ وأى لسان ؟ ؟ وستقابل الزوج ، عند ما يطلع النور ؛ ستواجه زوجها وتقف أمامه ؛ ولكنه لن يعرف شيئا ، ولن تعرف النسوة شيئا ، ولكنها مع هذا ستشعر بالخجل ، وتغض الطرف وتنكس الرأس ، وهى الجميلة المزهوة التى تعلو على أقرانها ولداتها

ستسير فى القرية مطأطئة الرأس ، خافضة الطرف ، لا تستطيع أن تقابل نظرة امرأة بمثلها ... ستفعل ذلك ما دام الاحساس بالجريمة يلازمها ؛ وإذا ما بارحها هذا الاحساس ستنسى ، ولكنها لن تستطيع أن تنسى كل شىء . ستذكر دائماً أنها فعلت ذلك بمحض ارادتها ، وكان عليها أن تقاوم وتمزق الثوب وتشق الجيب ، وتملأ الدنيا صياحا . إنها لم تأخذ شيئا ، لم تأخذ شيئا مطلقا ، وأخذ الرجل كل شىء !

ولن تذهب إلى البئر بعد اليوم ، لا فى الصباح الباكر ،

ولا فى الليل الزاحف ؛ لا وحيدة ولا برفقة أحد . كل ما توده الآن هو أن تنسى ، هو أن تحاول أن تنسى . كل شىء فى الحياة يتغير فى ساعة ، يتغير فى ساعة أزلية مسطورة فى صفحة حياتنا . لقد غدت الفتاة المشرقة الضاحكة الناضرة ، المرأة المشوهة المنكسرة الواجمة ... بعد ساعة مرت كالعاصفة

فتاة الريف لا تزال بخلقها البكر ، لا يزال ضميرها حياً ، لم تخدره بهارج المدنية الكاذبة ، إنها لا تزال ترى الأشياء على حقيقتها . لا تزال بطبعها البكر طاهرة نقية قوية الايمان عفيفة الأزار . . . . تستهول الجريمة الجنسية ، وتستفظع الخيانة الزوجية ، وترجف حتى من مجرد التفكير فيها ، هكذا شعورها بفطرته ، تعرف من غير معلم ولا مدرسة أنها خلقت لرجل واحد ليس إلا . رجل واحد يأخذ منها قلبها وجسمها ، ويستغرق تفكيرها ووجودها . وتدفعها فطرتها الى أن تكون له أبداً . أما إذا زلت قدمها ، وجرفها التيار الى الوحل مرة ! فما الذى تفعله ؟ تحاول بكل ما تستطيع من قوة أن تنسى . . . لأنها لو ذكرت ربما عاودتها مع الذكرى أشياء لا تحبها ولا تود التفكير فيها

ولما أشرفت على الجسر الذى ستنحدر منه الى حيها راعها نباح الكلاب الشديد ! إنها لم تنبح بمثل هذه الشدة مطلقاً ؛ إنها تطارد فى ظلام الليل أشباحا مخيفة تروعها . وأحست بوخز الابر فى جسمها . أخذ جسمها يرتعش ، ومع الرعشة برودة الثلج . فمالت الى جدار قائم فى الطريق واعتمدت عليه دقائق . ولما رجعت اليها بعض قوتها استأنفت سيرها ، وتقدمت تسحب رجليها سحبا ، وقد آب لها بعض حسها ؛ على أن جسمها كان يشوكه مثل الشوك دائما . وأخذت عينها الترعة ، وماؤها يتدافع ويجرى . وقد تراقصت الصور فى مخيلتها واختلطت . بعد خطوات ستصل المنزل وتلاقى زوجها . وحدقت فى الماء وهو يجرى متدفقا منطلقا كالسهم ، لا شىء يقف فى طريقه ، يجرف معه دقيق الحصى والتراب ، ويحمل على متنه خفيف الريش ، لقد حملها التيار ، الى أين ذاهبة ؟ الى أين ذاهبة ؟

ما الذى سيحدث لو علم زوجها ؟ سيذبحها كما يذبح الفروج . ليس أيسر على الريفى من ذلك فى سبيل عرضه وشرفه ، وهو ثروته الباقية على الأيام . ماذا يحدث لو علم لداتها ؟ ؛ ما الذى سيحدث لو علم أقرانها اللواتى تزهى عليهن بجمالها وتشمخ ؟ سيمزقنها بألسنتهن ، وستغدو حديثهن فى كل سمر ، ومتعتهن فى كل مجلس . ما الذى سيحدث لو علم أهلها ؟ أخوها أقوى شباب القرية سيدفنها حية كما دفنت ناعسة ومبروكة وعزيزة من فتيات القرية التى حامت حولهن الشبهات ، وعفى عليهن الآن ذيل النسيان فلا يستطيع أحد أن يذكرهن لأن فى الذكرى جريمة . . . حتى ذكراهن عند القروى جريمة

ونزلت من الجسر الى الدرب الذى فى نهايته منزلها ، ومشت مستريحة الى الظلام المتكاثف . كل ما توده الآن هو أن تسير فى جوف الظلام متقية به أعين الناس . لقد مشت على الجسر راجفة مروعة تخاف أن يبصرها خفير الدرك ، ولكنها الآن فى جوف الظلام آمن وأسلم

وتقدمت فى الدرب متخاذلة متثاقلة تحس الأرض تنشق تحتها ، تصعد أكوام الرماد الملقاة عند أبواب المنازل وتهبط معها وهى تتصور أنها ترقى تل الصحراء . ولما بلغت باب البيت وقفت لحظات . . . ثم تجاسرت ودفعته

كان زوجها نائما على السطح فانتبه على حركة الباب ، وصاح بصوت جاف :

« تأخرت ياجميلة . . . »

وكان صوت زوجها يرعد . آواه ظنته نائما فاذا بعينه ساهرة ، فلم تجب ، وغضت رأسها ووقفت فى صحن البيت جامدة . ولو بصر بها زوجها لرأى أغرب صورة . ولم ينتظر جوابها فصمت ، ثم قال بعد مدة :

« اسقى البقرة واعلفيها . . . »

ومضت فترة قصيرة سمع بعدها بكاء عاليا ، فسأل بغضب وقسوة ، فأسخف ما فى نظر القروى بكاء امرأة :

« ما الذى جرى ؟ »

فلم ترد . . . وزاد نحيبها

« ما الذى جرى ؟ »

وانتصب وأطل من صحن البيت

« ما الذى جرى ؟ »

« الجـ ... الجر ... الجرة ... آه ... أهىء ... »

« كسرت ؟ »

« أجل ... آه ... أهىء »

« وهى تستحق كل هذا البكاء ؟ .... كفى ! »

« آه ... أهىء ... آه ... »

« كفى ... » بصوت راعد

فحبست زفراتها وغيضت عبراتها ودفنت وجهها فى حجرها

ونام الزوج وغط !

* * *

زحف الأعمى الى المسجد قبل الفجر ، وهو متخاذل الجسم متسعر الجمجمة . وكانت قد ساورته فى الليلة التى خلت حمى شديدة تصبب لها عرق يملأ القرب ؛ وبات يتقلب على مثل الشوك ويود من فرط الحمى المتأججة فى جسمه من يقذف به الى اليم . بيد أنه تحامل على نفسه لما لاح النور ومشى الى المسجد متوكئاً على عصاه ، فما من الأذان بد . أجل ما من الأذان بد ! كيف يغفل عن أذان الفجر !

وصعد الى سطح المسجد ووقف ناصباً قامته ملوا عنقه ، ويده على الساعة يتحسس بها العقرب ، حتى حان وقت الفجر فوضع يده عند أذنه وانطلق ...!! ولكن ما هذا ؟ ما الذى جرى ؟ لقد اختنق صوته واحتبس ، وأصبحت الحروف تخرج من حنجرته مصفّرة عاوية عواء الذئب . ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى ؟ حاول مرة ثانية فأخفق ، وتمهل لحظة ؛ وحاول مرة ثالثة ، فأخفق أيضاً ؛ وهبط الى صحن المسجد ، وهو يهتز اهتزاز القصبة الجوفاء فى مهب الريح العاصف ، وتقدم حتى وقف على رأس رجل نائم

« ياشيخ على . . شيخ على . . ! »

« نعم ... »

« قم أذن الفجر ... فصوتى لا يطاوعنى اليوم ... أصابنى البارحة برد شديد ... »

وبارح المسجد قبل طلوع الشمس ، وسار على الجسر حتى بلغ الحقول المجاورة . وكان قد نال منه التعب ، وبلغ منه الجهد ، فاستراح تحت شجرة من شجر السنط ، وضربه هواء الصباح على أذنه فنام حتى القيلولة . وقام وقد حميت الشمس ، وتوقدت الهاجرة ، وانقلب الهواء راكداً خانقاً يلفح الوجوه بوهج السعير ، واستوى على قدميه وأمسك بعصاه ، واتجه الى القرية ، وكل شيء فيها ساكن وادع إلا الأطفال الذين لا يقيمون وزناً ولا يبالون بحر أو برد

« أحمد ... سيد الأعمى ! »

« صحيح ؟ ... »

« والنبى ... »

وتجمع الصبية على الجسر ، ووقفوا صامتين وعلى شفاههم بسمات خفيفة ، حتى جاوزهم الأعمى ، وهو يسير سيره المألوف . ولما بعد عنهم قليلا ، رماه أصغرهم بحصاة استقرت عند صدغه . ما هذا ؟ لقد أصابته للمرة الأولى أول رمية أصغر صبى ! ما الذى جرى ؟ وانهالوا عليه بعد ذلك يدا واحدة حتى أمطروه وابلا من الحصى والحجارة . فاستدار لهم الرجل وقد تميز غيظا ، ولوح بعصاه يهدد ويتوعد ، فتفرقوا عنه واستأنف سيره بعد برهة قليلة ، واستأنفوا هم بدورهم حصاهم وحجارتهم . فما أقل الصبر عند الأطفال ! وأصابه حجر فى الجانب الأيسر من صدغه فشجه وسال الدم ، وآلمه الجرح جداً حتى خرج به عن رشده ، فدار على عقبيه وجرى وراء الصبية يضرب بعصاه يميناً وشمالاً ، ولا يبالى أين تقع وتصيب ، وهو مخبول تماماً ، حتى أصابت ضربة قوية صبياً فى رأسه فجرحته جرحاً بليغاً ، ونزا دمه الأحمر فلطخ وجهه ؛ وكان الكلب رابضاً على الجسر فى ظل جدار لمنزل خرب ، وعينه إلى المعركة التى حميت واشتدت ، فقام ينفض جسمه نفض الليث ، وتوثب وثبات جامحة ، ثم دار دورات سريعة يقذف فى خلالها الهواء بغبار رجليه ، ثم انقض على الرجل فمزق الجزء الأمامى من ثوبه ! وطار به ، والصبية يبصرون هذا ولا يكادون يصدقون ، وشجعهم الكلب على معاودة الكرة على الرجل فانهالوا عليه ، وقد حموا ونشطوا ، يرجمونه بالحصى والحجارة ، حتى انطلق الرجل يسابق الريح . ومازالوا يتبعونه حتى أجلوه عن القرية . ولما كلت سواعدهم رجعوا الى القرية ضاحكين . وانطلق هو يجرى كالمخبول لايلوى على شيء

* * *

وبصر القرويون فى صباح اليوم التالى وهم فى الطريق إلى سوق « المركز » بجثة ملقاة على قارعة الطريق ، فمنهم من قال إنها لسيد أعمى ؛ ومنهم من أنكر ذلك

على أن الذى نحن على يقين منه أن الرجل لم يدخل مسجد القرية بعد ذلك أبداً

محمود البدوى

البريد الأدبي

حول البناء الحر (الماسونية)

وجه الى الأستاذ (ع) من دمشق على صفحات « الرسالة » كلمة يعلق فيها على عبارة لى وردت عرضاً فى مقالى عن « البارون فون أوفنباخ » (الرسالة عدد ١٤١) بشأن « البناء الحر » (الماسونية) وغاياته

وما قلته يومئذ من أن البناء الحر إنما هو حركة من حركات الخفاء العالمية وأنه يعمل منذ الأحقاب لغايات بعيدة المدى ، لا تدركها المحافل الصغيرة ، ولا المراتب الدنيا ، خلاصتها هدم النظم والعقائد القائمة كلها ، وادماج الانسانية فى مجتمع عام حر التفكير تسوده المساواة الاجتماعية المطلقة ، هو أرجح الآراء التى انتهى إليها البحث الحديث فى شأن البناء الحر وغاياته

وقد ذهب بعض أكابر الباحثين إلى أن حركة البناء الحر ليست إلا وجهاً من وجوه «الثورة العالمية» التى تسمى لاحداثها حركات هدامة كالشيوعية وغيرها

وقد كان البناء الحر وراء معظم الحركات الثورية فى العصر الأخير ، ولا سيما فى اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا

بل ذهب بعض الباحثين ، ومنهم المؤرخ الفرنسى الكبير أولار ، إلى أن الثورة الفرنسية ربما لم تكن فى جوهرها سوى مؤامرة دبرها البناء الحر ، وحاول أن يصل باضرامها الى تحقيق غاياته

وكنت أود أن أزيد السائل الأديب بياناً ، ولكن يحول دون ذلك اعتلال صحة وأهبة عاجلة للسفر الى الأندلس

بيد أنى أحيله على بحث مستفيض عن البناء الحر وتاريخه ونظمه وغاياته ووسائله نشرته منذ أعوام فى كتابى « تاريخ الجمعيات السرية » (ص ٨٧ – ١١٥) ؟

م . ع . ع

كتاب عن برلين

ظهر فى العهد الأخير نوع جديد من الأدب الوصفى هو دراسة العواصم الكبرى باعتبارها أكمل مظهر لمختلف الشعوب والأمم ؛ وبلغ هذا الضرب الجديد من الأدب روعته على يد كتاب عظام مثل بول موران ، الذى تعتبر كتبه عن لندن ، ونيويورك ، وبخارست من أبدع آثار الأدب المعاصر . وقد ظهر أخيراً كتاب من هذا النوع عن مدينة برلين بقلم الكاتب والمؤرخ المعروف هنرى بيدو ، وهو يصور لنا برلين كمارد ضخم يجثم فى وهاد راندنبورج وفيما بين الغابات والمستنقعات ؛ وقد لوحظ كثيراً أن برلين ليست كباقى العواصم الأوربية الكبرى من حيث مناسبة موقعها وكونها تعبر عن مظهر لالمانيا الحقيقى فهى من حيث الموقع لا تضارع رومة التى تقع فى وسط إيطاليا وتشرف على البحر الأبيض ، وباريس التى تعتبر كأنها مجلة الادارة الفرنسية ، وموسكو التى تجتمع حولها موارد روسيا الشاسعة ، ولندن ونيويورك وغيرها ؛ ثم هى لا تعبر عن مظهر ألمانيا ، أولاً لأن العنصر السلافى يغلب فيها فهى ليست مدينة ألمانية حقة مثل ميونيخ أو لايبزج أو فرنكفورت ، وثانياً لأنها تبدو دائماً كأنها عاصمة مفروضة على ألمانيا ، فرضها آل هوهنزلرن رمزاً لقوة بروسيا ، ثم فرضتها الظروف بعد ذلك ؛ وحياتها الاجتماعية كمدينة عظيمة تكاد تكون معدومة ذلك لأنها تبدو دائماً كمعسكر ، تغلب عليه المظاهر الآلية والخشنة ، فالحياة المعنوية والاجتماعية فيها راكدة لا تروق الأذهان الحساسة الرفيعة . ولقد كانت ألمانيا تقدر منذ بعيد أن برلين الحديثة سيبلغ سكانها فى فترة وجيزة ١٢ مليوناً من الأنفس ، ولكن برلين لم تبلغ بعد الجهد ثلث هذا الرقم ، وهو دليل آخر على ركودها المعنوى والمادى

هذه هى الصورة التى يقدمها الينا هنرى بيدو عن العاصمة الألمانية ، وهى صورة لا تغبط عليها مثل هذه العاصمة الكبرى

جورج دوهامل عضو الأكاديمية

وأخيرا انتظم جورج دوهامل بين أعضاء الأكاديمية الفرنسية وأصبح من الخالدين. وجورج دوهامل كاتب من أعظم كتاب فرنسا المعاصرين، وكاتب اجتماعي وانساني قبل كل شيء؛ وقد اشتهر بعدة من آثاره القيمة وبالأخص بكتابين هما «حياة الشهداء» Vie de Martyrs و«اعتراف منتصف الليل» Confession de Minuit

وزار دوهامل مصر أكثر من مرة، في شتاء سنة ١٩٢٩ وفي صيف سنة ١٩٣٤؛ ولم يكتب دوهامل عن مصر ولم يصفها كما يفعل زملاؤه الذين يزورونها؛ ولكن يؤثر عنه بأنه وصف مصر بأنها «الأرض التي يسود فيها منذ الآماد عشق الحياة الأخرى» وقد تأثر دوهامل أيما تأثير بما رأى من آثار الفراعنة التي تتجسم فيها فكرة الخلود والأبدية

ودوهامل يكتب بأسلوب رائع وبيان قوي؛ وتطبع كتاباته كلها نزعة الى الانسانية والى التسامح العام

ولم يكن دوهامل يوما من الساعين الى الدخول في الأكاديمية ولكنه حينما رشح وانتخب لهذا الكرسي الرفيع لم يسعه إلا أن يتبوأه مغتبطا

بعثة جديدة الى الأرض الخضراء

سافرت أخيرا إلى الأرض الخضراء (جرينلند) بعثة علمية فرنسية، لتقوم بقطع هذه الجزيرة القطبية الشاسعة من الغرب الى الشرق؛ وهي مؤلفة من الدكتور جيسان، وميشيل بيريه، والكونت كوند، ورئيسها بول أميل فكتور. ومن أهم أغراض البعثة أن تقوم باسعاف السكان الذين يقطنون هذه الصحاري الثلجية والذين تفتك بهم «الأنفلونزا» في الوقت الحاضر فتكا ذريعاً

وقد سبق لرئيس هذه البعثة، وهو بول فكتور أن قام برحلة كبيرة الى الأرض الخضراء، وسلخ عاما في مدينة انجمسالك في شرق الجزيرة، وهو يعيش عيشة أهلها الصيادين ويقلدهم في جميع عاداتهم وأحوالهم الخشنة

وقد حالت تلال الثلوج دون سير السفينة «بوركوا» القطبية، فاضطرت البعثة أن تحاول الوصول الى انجمسالك من طريق اليابسة

ومن أغراض البعثة العلمية أن تقوم بتحقيق ملاحظات العلامة المكتشف فنجر الذي قام سنة ١٩٣٠ بسبر غور أعماق الطبقة الثلجية التي تغطي الجزيرة كلها، وأن تكرر تجاربه من نسف الثلوج بالديناميت، وقياس سرعة تغلغل الديناميت ليستدل بها على الأغوار؛ وقد ثبت من تجارب العلامة فنجر أن أعماق الطبقة الثلجية تتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٧٠٠ متر؛ وتنوي البعثة أيضاً أن تقوم ببعض دراسات أقليمية، وأن تدرس طبائع السكان وأحوالهم الجنسية

رحلة الى الأندلس

اعتزم صديقنا الكاتب المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان أن يقوم هذا الصيف برحلة جامعة الى اسبانيا، يدرس خلالها جميع المراجع والمخطوطات العربية في مكاتب الأسكوريال ومدريد وغرناطة ودير ساكر ومونتي، وجميع الآثار والنقوش العربية في مختلف المتاحف الاسبانية؛ ويتجول في ربوع الأندلس وقواعدها القديمة مثل طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة وبلنسية وغيرها؛ فيشاهد ما بها من الآثار العربية، ويدرس في الطبيعة معالم الوقائع والأحداث التاريخية الشهيرة

ويقوم الأستاذ بهذه الدراسة استكمالاً لمواد كتابه الذي يضعه عن تاريخ الأندلس، والذي توفر منذ أعوام على وضع منهجه واعداد مواده

بناة العالم لاشتيفان زفايج

نعرف أن للكاتب النمسوي الكبير اشتيفان زفايج عدة دراسات نقدية هامة عن طائفة من أقطاب التفكير والكتابة، صدرت من قبل تحت عناوين مختلفة. فمثلاً صدرت الدراسات الخاصة ببلزاك ودكنز ودستويفسكي تحت عنوان «الأساتذة الثلاثة»، وصدرت تراجم هلدرلن وكلايست ونيتشه تحت عنوان «النضال مع الشيطان»، وكازانوفا وشتندال وتولتسوي تحت عنوان «شعراء ثلاثة لحياتهم»

وقد صدرت أخيراً طبعة ألمانيا جامعة لهذه الدراسات الشهيرة تحت عنوان جديد هو «بناة العالم» — Baumeister der Welt، وصدرت عن مطبعة ريخنر النمسوية الشهيرة في ثوب أنيق جداً

والمعروف أيضاً أن هناك تراجم فرنسية وانكليزية لهذه الدراسات القيمة ظهرت متفرقة ومجتمعة

ويقيم اشتيفان زفايج معظم شهور السنة فى مدينة سالزبورج الشهيرة بفنونها الموسيقية والغنائية ، ويقضى باقى الوقت فى مدينة فينا

رحلات أفريقية

صدر أخيراً بالانكليزية سفر من أسفار الرحلات الممتعة عنوانه « فجر الاستواء » Equatorial Dawn بقلم الكاتبة والرحالة الانبكليزية الشهيرة السيدة دروثى أونا رانكليف (أو مسز ماك كريجور فلبس) ، والسيدة رانكليف شاعرة غنائية رقيقة ولها ديوان شعر ممتع تترنم فيه بمحاسن موطنها ومهد طفولتها «يوركشير» . وهى رحالة كثيرة الاسفار ، تجولت كثيراً فى قلب افريقية ، وفى أعماق وهادها وغاباتها ؛ وقد أصدرت من قبل كتاباً عن بعض رحلاتها الافريقية عنوانه « صيف فى جنوب افريقية » Asouth African Summer ، وفى كتابها الحالى تصف رحلاتها برفقة زوجها وجماعة من الأصدقاء الرحل فى كنيا وأوغندا وتنجانيقا ، والكونغو ، والسودان ، والنوبة ؛ وقد كانت غاية هذه الجماعة المخاطرة أن تقوم باقتناص الوحوش الضارية فى أعماق الغابات والوهاد الخطرة ، وأن تصور مناظر الصيد تصويراً طبيعياً دقيقاً ، وأن تدرس طبائع الوحوش وحياتها من الوجهة العلمية . وقد استطاعت البعثة أن تصور مناظر الوحوش من آساد وفيلة وسباع البحر ، والطيور تصويراً بديعاً ؛ واستطاعت أيضاً أن تجوس خلال القبائل الزنجية العارية وأن تدرس أحوالها وطباعها . وقد لقيت السيدة رانكليف ورفاقها كثيراً من المخاطرات والحوادث الشجية والفكهة معا ، فدونتها كما وقعت بأسلوب ساحر . وفى الكونغو استطاعت البعثة أن تقوم بالصيد والدرس فى « بستان الكونغو » وهو أعظم حظيرة لصيد الضوارى فى العالم وتشرف عليه سلطات الكونغو البلجيكية ؛ وتصف المؤلفة ادارة الكونغو البلجيكية ، وتصف حياة السكان ، والبعثات الدينية والمهاجرين القلائل فى حياتهم الساذجة الشاقة ، وتصف لنا التماسيح المقدسة فى بحيرة فكتوريا ، وما حول هذه الوهاد من المناظر الطبيعية الرائعة ، وما يعمرها من عالم الحيوان والانسان . والخلاصة أنها تقدم إلينا صوراً حية بديعة من الحياة الافريقية فى أروع وأعجب أشكالها ، وكتابها ممتع خلاب ، يعتبر بمحتوياته وأسلوبه من كتب الرحلات الرفيعة

تدريب الكلاب على السير

يبدى الانكليز عناية كبيرة بالحيوان ورفاهته والمحافظة على حياته ؛ ومن ذلك الكلاب ، فانها تلقى كثيراً من الرفق والعناية وقد لوحظ أخيراً فى انكلترا أن عدداً عظيما من الكلاب يقتل كل عام بسبب حوادث السيارات وغيرها فى الطرق العامة ، فارتفعت الأصوات بوجوب العمل على حماية هذه الحيوانات ، وقضت المحاكم فى كثير من القضايا التى رفعها أصحاب الكلاب المقتولة على أصحاب السيارات بتعويضات كبيرة ؛ وأخيراً رؤى أيضاً أن التعويض لا يكفى لتعزية أصحاب الكلاب العزيزة ، فرؤى تقليلاً للخطر أن تدرب الكلاب نفسها على السير فى الطرق العامة كما يدرب الأشخاص

وقد أجريت أخيراً تجارب عديدة فى هذا الباب ، وقام نادى « تيل واجرز » بدعوة واسعة النطاق لتدريب الكلاب وتعويدها الطاعة وفهم الاشارات المختلفة ؛ وأسفرت التجارب التى أجريت على بعض الكلاب بدفعها فى الطرق وأمرها بالسير فى اتجاهات وأوضاع معينة عن نتائج حسنة ، وأمكن لهذه الكلاب أن تتجنب كثيراً من السيارات والعربات الثقيلة فى مآزق حرجة

من هنا ومن هناك

دانتي والكوميدية الإلهية

حينما بعثت رسالة الغفران لشاعرنا العظيم أبي العلاء كثر الجدل بين الأدباء حول الأصل الذى استقى منه دانتي ألليجيرى صوره الرائعة التى حشدها فى كوميديته ، وكاد الجميع يجزمون أن ذلك الأصل هو رسالة الغفران ، وأيدهم فى ذلك مستشرقون كثيرون حتى كادت المسألة تعتبر مفروغاً منها وأن دانتي إن هو إلا عالة على أبي العلاء . . . ثم قام أديب مسيحى فاضل فنقل الموضوع الى ميدان آخر إذ حاول أن يثبت أن دانتي لم يقلد أبا العلاء وإنما هو قلد (رؤيا يوحنا اللاهوتى) الواردة بالأنجيل . وقد يكون هؤلاء وهؤلاء على شيء من الحق فيما ذهبوا اليه من رأى ، وان كنا نحن لا نميل كثيراً الى رأى أصحاب أبي العلاء —لأننا برغم براهينهم الكثيرة التى أدلوا بها— نشك فى سرعة تنقل الثقافة العربية من شرق البحر الأبيض المتوسط الى وسطه وغربه بهذا القدر الذى يبالغون فى وصفه لا سيما فى أسود فترات العصور الوسطى : ثم نحن لا نرى كبير شبه بين آل Infferoo فى كوميدية دانتي وبين جحيم أبي العلاء ، ويكاد هذا الشبه ينعدم فيما يتعلق بال Purgatorio فى دانتي والبعث فى أبي العلاء ... أما Paradiso دانتي فهى شيء وفردوس أبي العلاء شيء آخر . . . ونحن نعترف أن ثقافة العرب كانت تجرف أوروبا خصوصاً من جهة الأندلس ثم من جهة صقلية ، ولكن الذى نشك فيه هو انتقال أدب أبي العلاء إلى إيطاليا لدرجة أن يؤثر فى أدبائها إلى هذا الحد وفى زمنه كانت طرق المواصلات محفوفة فيه بأكبر المخاطر ، ذلك إلى غلاء وسائل الثقافة حينئذ وأهمها الكتب التى كانت تكتب كلها باليد ، ونحن نرجح أن دانتي تأثر إلى حد بعيد بالمصادر الدينية (وأهمها الانجيل والقرآن) والمصادر اليونانية وأهمها (الالياذة والأوديسة) ثم بملحمة مواطنه العظيم (فرجيل) الأنييد

فمن رؤيا يوحنا اللاهوتى ومن الأوصاف البارعة للجحيم وطبقاتها وصنوف المجرمين الواردين عليها المذكورة فى كثير من سور القرآن قد اقتبس دانتي خياله الذى نسق به جحيمه (Inferno) . ولا ننس أن احتكاك أوروبا بالمسلمين فى الحروب الصليبية كان يغشى الثقافة الاسلامية فى هذه القارة أوانئذ ، وخير ألوان هذه الثقافة ما فى كتاب الله . أما تأثره بالالياذة والأوديسة والأنيد فهو أقوى وأظهر ، وقد درسنا هذه الملاحم جميعاً وأنعمنا النظر فى ال (Divina Commedia) فكان يدهشنا أن يترسم دانتي خطى الشاعرين الخالدين هوميروس وفرجيل ويأخذ عنهما كل ما ورد فى الأساطير القديمة من أوصاف (هيدز) وما يحيط بها من أنهار تفور بالحمم وما تعج به من سعالى وثعابين وسنتورات وتنانين . . . وكان دانتي يمزج فى كوميديته ألواناً من الفكر اليونانى لا تخفى على الملم بأدب الأغريق . أما فى المطهر والفردوس فما نحسب أن دانتي كان مقتدياً بلون ما من أدب السلف ، ولعل ذلك هو السبب فى فتور هذين الجزءين من الكوميدية

هذه كلمة خاطفة نؤثر عليها فصلاً طويلاً نقارن فيه بين هؤلاء الشعراء الخالدين[1]

روجر بيكون (١٢١٠ — ١٢٩٣)

من أحسن الكتب التى ألفت عن العصور الوسطى كتاب الأستاذ العلامة هنرى أسبرن تايلور (The Mediexal Nind) بل لعل هذا الكتاب هو أحسنها جميعا . وقد لا تجد مؤلفاً محققاً مثل تايلور أنصف الرجل المفكر المسكين روجر بيكون الذى يعتبر أول رائد من رواد الحضارة الحديثة التى ننعم بها ، والتى تتضاءل بجانبها أزهى الحضارات القديمة . وأغرب ما يروق القارىء من روجر بيكون أنه لم يكن يعيش فى العصر الذى وجد فيه ، بل هو كان لذلك العصر بجسمه وآلامه فقط ، أما روحه وعقله فقد كان يعيش معنا ويفكر تفكيرنا ، ويشغله من مستقبل الانسانية

(١) ولعل الأستاذ لا ينسى فى فصله المنتظر حديث المعراج (الرسالة)

ما يشغلنا . ولقد كان بيكون عدواً لدوداً لمسكرين يعتبر كل منهما نقيض الآخر . . كان عدوا للكنيسة التي تفرض سلطانها وترمتها على العقول فرضاً ، وكان يوصي الناس ويحضهم على عدم الخضوع لغيرها والتحلل من ربقتها في تفكيرهم ، ومن هنا ما لقيه بيكون من السجن والنفي والتشريد وألوان العذاب التي تتحيفه من حين الى آخر .. ثم هو كان عدواً لأرسطو ولفلسفته : « التي كانت كتبها في نظره جديرة بالتحريق لأنها مضيعة للزمن ، وتحصيل للخطأ ، وتكثيف للجهل ! » وربما كان روجر معذوراً في هذه النظرة السوداء إلى أرسطو الذي كانت كل تراجمه خطأ في خطأ في تلك العصور ؛ ولكن روجر بيكون كان يرى في فلسفة أرسطو شقشقة طويلة لا تؤدي الثمرة المشتهاة التي كان ينشدها هو في العلوم عن طريق التجربة ، ومن هنا أيضا حبه العظيم وإعجابه الذي لا يحد بالعرب وبالثقافة العربية في الطب والكيمياء وعلم الأقرباذين وعلم المعادن ؛ وربما كانت عداوته لأرسطو نتيجة انكبابه على دراسة العلوم العربية التي كان المعمل وحده ميدانها

والمضحك أن الكنيسة ، ومن ورائها الشعب الساذج الذي لا عقل له ، كانت تعتبر بيكون دجالاً مشعوذاً يجيد صنوفاً كثيرة من السحر . وكان الجميع يعدونه مجنونا حين كان يتنبأ عن إمكان صنع سفينة تسير بالبخار « بدون شراع أو مجاديف » أو قاطرة أو سيارة « لا يجرها حصان أو زوج من الثيران » أو طائرة « ترتفع في الجو بجناحين من المعدن يضربان الهواء كما يصنع الطائر » . . .

توماس مور وكتب الطوبى

ليس شك في أن سير توماس مور هو خالق انجلترا الحديثة ، لأنه بطل نهضتها في العصور الوسطى ، وقد ولد قبل شاكسبير بمائة سنة تقريباً ، وكان صديق إرزم الأديب الهولندي الكبير ، وبطل النهضة في الأراضي المنخفضة . ويقولون إن توماس مور هو أول انجليزي تعلم اللغة الأغريقية وقرأ فيها آدابها ، ومن هنا تأثره العظيم بأفلاطون وتأليفه كتابه القيم الجميل « طوبى Uropia » على نسق « جمهورية أفلاطون » وقد كتب مور طوباه باللاتينية لغة العلوم والمعارف والآداب في العصور الوسطى وطبعت للمرة الأولى في لوفين (١٥١٦) ثم طبعت في باريس (١٥١٧) وفي بازل (١٥١٨) ولم تترجم إلى الانجليزية إلا سنة ١٥٥١ بواسطة الأديب الكبير رالف روبنسون

ومما لا ريب فيه أن اكتشاف أمريكا كان أهم الأسباب التي أوحت إلى مور تأليف طوباه ، فقد أذكره هذا الحادث حلم أفلاطون بالمدينة الفاضلة ، وتصور أن الأوان قد آن لتحقيق هذا الحلم ، وخال شعباً من خيرة أهل الدنيا القديمة يبحر إلى أمريكا فيعيش في رغد وبلهنية ، لا يعرف أدواء الانسانية التي فتكت بها في هذا العالم القديم . وقد دعا مور في طوباه إلى احتقار القوة وأعمال العنف ، وبشر بمحبة ومؤاخاة يسودان العالم ، وعاطفة خير توجه مصائر الناس . وعندنا أن مور بكتابه الجميل قد سبق مواطنه هـ . ج . ولز — الذي ألف هو الآخر طوبى جديدة — إلى الدعوة إلى العالمية والايمان بالبشرية والتهوين من قيمة الوطنية ، وأن يجعل الناس هذا الكوكب الأرضي الجميل وطنهم الأكبر فلا يلطخوه بالدماء

وقد كان فرنسيس بيكون معجباً إلى أبعد حدود الاعجاب بتوماس مور ، وقد نسج على منواله فألف كتابه (اتلانتيس الجديدة) على منهاج طوباه ، وكتب مثله في اللغة اللاتينية

ولقد وقف مور في محنة الكنيسة الانجليزية في عهد هنري الثامن موقفاً حازماً كلفه حياته ، فخسرت انجلترا فيه أديباً كان يساوي عشرة ملوك من ملوك هذا الزمن

بعض الكتب

سألنا قارىء فاضل عن أسماء بعض الكتب التي ورد ذكرها في هذا الباب بالانجليزية لولز ورتن راسكو وقد أجبناه بالبريد ، وسنجتهد في إثبات الأسماء الأفرنجية كلما أمكن ذلك لتتم الفائدة

د . خ

الكتب

الرحيل - رجل

تأليف محمود البدوى

للأستاذ محمد على غريب

القصة المصرية عندنا ما تزال فى مهدها اليوم ، وأكبر الظن أنها سوف تبقى فى لفافات الطفولة الى مدى طويل ، وأن يفقد الأدب العربى عندنا هذه الثروة الضخمة التى انحصرت فى القصة ومنحت الآداب الغربية مالها اليوم من تفوق ونجاح

وقل أن تقع فى يدى قصة مصرية فأهوى بأوراقها الى الطاهى ليصنع منها أغطية لزجاجاته الكثيرة ، فما وجدت من هذه القصص السخيفة إلا كل سخف وسماجة وموضوع يمسك هذا بطرفه وذاك بالطرف الآخر منه ثم يتنازعان نهايته . . فتاة فقيرة أو غنية ، يعشقها أو تعشق هى شابا فقيراً أو غنياً ، على شرط ألا يكون أحدهما كفؤا للآخر فى الثروة ؛ وبعد دموع كثيرة وزفرات تدير الطواحين تنتحر الفتاة أو ينتحر الشاب أو ينتحران معاً . . طبقا لرغبة المؤلف وميله الى أحد البطلين

ذلك رأيى ... ومنذ شهور أهدى الىّ صديقى الأديب الفاضل الأستاذ محمود البدوى قصته (الرحيل) فتركتها معه ريثما آخذ نفسى بأن تدع محاباة الصديق فى تلك الهدية ، وقرأتها ؛ وبعد ذلك أهدى إلى قصته (رجل) فقرأتها ، ولأول مرة يندب الطاهى حظ زجاجاته

لست أثنى على صديقى لأن بينى وبينه هذه الصلة ، فان من الخير لى وله أن أجاهره بالرأى الصريح ولو كان فيه مايؤلمه ، فأننى أعرف فيه حسن تقبله للنقد ؛ ولم تصلح الصداقة يوما ما رشوة بين صديقين يحب كلاهما صاحبه ويخلص له . فالواقع أن هذين الكتابين اللذين أخرجهما الأستاذ البدوى لقراء العربية من خير المحاولات المفيدة الناجحة فى سبيل بعث القصة المصرية ووجودها

فى قصة الرحيل ترى يد شاب امتلأ صدره بشتى العواطف والنزعات ، ترسم على الورق بعض ما يروح عنها .. إنه شاب نشأ فى البيئة الخانقة المزعجة ، فلما بهرته أضواء المدنية ورأى فيها حيلته عاجزة كليلة راح يستصغر نفسه دونها ويحاول أن يخفى ارتباكه باطلاق العنان لهذه الجياد الجامحة فى نفسه ؛ فهو طوراً يمجد الجمال ويتفهم الحب ، وطوراً ينزع الى الرغبة فى التحرر من كل قيد ، وطوراً تعود به نفسه الى طبيعته الأولى فيستهويه صوت المؤذن ويخشع قلبه للدين وتعاليمه

وأنت إذا قرأت هذه القصة على هذا النحو أمكنك بسهولة أن تدرك لماذا لم يحتفل المؤلف بأسلوبه ، وكيف جاءت ألفاظه مكررة فى بعض المواضع ، ولأى شىء التجأ الى الغموض والأبهام فى عباراته

إنه يرسم صورة من نفسه ، ونفسه ترسف فى أغلال قوية وتحاول الخروج منها ، فاذا عجزت عن المحاولة ترنمت بالايمان ، وإذا نجحت فى التنفيس عن كربتها فرحت بهذه الأضواء الباهرة التى يجد فيها حياته كلها وجميع أمانيه ...

***

أما قصته (رجل ...) وقصصه الصغيرة الأخرى ، فعلى هذا الطراز الفخم من الدقة والقوة والمتانة .. قصص يمكنك أن تقول عنها إنها من أقوى القصص المصرية الناجحة ؛ دون أن يضطرب ضميرك ، أو تنزعج نفسك ؛ ومن بينها قصة (الأعمى) . إنها صورة صادقة من أبلغ ما كتب الأدباء المصريون ، وقد امتزج فيها الفن بالواقع ، فترى أمامك مزيجاً منهما يلزمك أن تعاود قراءتها

ولست فى الواقع أريد أن أتحدث كثيرا عن هذه الباكورة الشهية التى تفتحت عنها جهود شاب أديب ، وكان خيرا لى وله أن أصبر طويلاً حتى أستوعب هذه القصص وأكتب عنها طويلاً ، ولكننا فى هذه الأيام نحتاج إلى السرعة والتعجل حتى لا نفقد الفرصة المناسبة ، ولهذا كتبت تلك الكلمة الصغيرة على الرغم منى

الثورة الوهابية

تأليف : عبد الله القصيمى

(١٤٠) صفحة — طبع مصر

هذا الكتاب شرح لمبادىء الدعوة السلفية ، وعرض لتاريخها وتاريخ رجالها . افتتحه المؤلف بفصل تحليلى عن الثورة وطبيعتها وأقسامها ، والمفاضلة بين الثورات السياسية والثورات الدينية ، كالثورة الوهابية (المؤسسة على أسمى المعانى الانسانية الخلقية المنتزعة من رسالة جبريل سيد الملائكة إلى محمد سيد البشر) . ووازن بينها وبين الثورة الفرنسية ، وبحث عما أسدت ثورة فرنسا الانسانية المسكينة من إخاء وحرية ومساواة ، وأحال فى الجواب على سوريا ومراكش والجزائر ! ...

ثم تكلم المؤلف عن منشأ هذه الدعوة وتاريخها وسيرة صاحبها ، وتكلم عن أهم ما دعا إليه وما أنكر عليه ، وبين أن أول مقومات هذه الدعوة (أستغفر الله بل أول مقومات الاسلام) منع دعاء غير الله — كدعاء الأموات — مهما كانت نية الداعى ومهما كان مقام المدعو ، ومنع الاستغاثة بغير الله والاستعاذة به ، ثم منع الابتداع فى الدين منعاً باتاً لا هوادة فيه ولا استثناء ، سواء فى ذلك الأدعية الفاسدة والأذكار التى لم ترد عن صاحب الشريعة ، والشطح والرقص فى الذكر والطرق المبتدعة وما إلى ذلك _ ثم الايمان بما جاء فى الكتاب والسنة من أن الله تعالى مستو على العرش استواء يليق به ، لا كما يستوى المخلوق ، وكذلك الايمان باليد والساق من غير تعطيل ولا تشبيه ، ثم إقامة الحدود الشرعية ، وهذه منقبة لو لم يكن اليوم للحجاز غيرها لكفى . وهل تماثل حكومة تقيم حدود الله على الزانى وشارب الخمر ، بحكومات اسلامية تجيز الزنا وشرب الخمر وتفتح لهما البيوت والحانات وتحمى أصحابهما ومن يعكف عليهما ؟ . ثم إن للمسلم أن يتفهم كتاب الله ويتدبره ، وألا يدع حكم الله وحكم رسوله لقول انسان ما ، وكل هذا حسن بشرط ألا يفهم منه العامى بأن له الاجتهاد ، وله أن يدع حكم مذهبه إذا سمع حديثاً صحيحاً قد يكون منسوخاً بحديث أصح منه ، بل عليه أن يتبع أحكام المذهب إلى أن يرزقه الله من الاطلاع على كلام العرب وسننها مايفهم به كتاب الله وسنة رسوله على وجههما ، ومن معرفة الأصول ما يعلم به استنباط الأحكام ويعرف الناسخ والمنسوخ ؛ وكما أن القول بسد باب الاجتهاد سخف ، فكذلك القول بفتحه للناس كلهم بلا تفريق بين عامى ومتعلم

هذا وقد طال بى نفس القول ولم أصف من الكتاب إلا جزءاً قليلا ، ولا أجد بدا من أن أقطع الكلام وأحيل القارىء على هذا الكتاب القيم ليقرأه بنفسه فليس يغنى عن قراءته وصفى ، وإذا كان لى أن أختم هذه الكلمة برجاء أرفعه الى جلالة الملك عبد العزيز بن سعود فهو أنى أرجوه أن يولى هذا الأستاذ الجليل شيئاً من العناية . ويأخذ بيده على ما هو فيه من خدمة الاسلام والدفاع عن السلفية — وأن يشجع أمثاله — وقليل ما هم — على سلوك هذا الصراط المستقيم . وانى أرجو لجلالة الملك التوفيق والهداية وللأستاذ المؤلف النجاح والأجر

(دمشق) (ع)

والذى ألاحظه كثيرا فى هذه القصص أن ناقدها لايستطيع أن يسبر غورها مهما حاول ذلك ... أترى لأن كاتبها لجأ إلى الغموض كما أوضحت ، أم لأنها قصص كتب بعضها عن شخص مؤلفها ، فما دام هو يفهم رموزها ويستشف غامضها كان على قرائه أن يقنعوا من الرموز والغموض بما وصلت اليه أفهامهم ؟

لست أدرى .. ومع ذلك فهذه القصص اللطيفة صغيرة الحجم وثمنها زهيد ، وما على القارىء إلا أن يقتنيها ليرى كيف يبدأ شاب أديب فجر حياته الأدبية ؛ وإذا كانت هذه بدايته المباركة فماذا عسى أن يكون بعد سنوات ؟

سوف يكون دون مبالغة من طراز انطون تشيكوف !

محمد على غريب